كيف غيّرت القراءة حياتي

Telegram:@mbooks90

آنّا كويندلين
Anna Quindlen

ترجمة
محمد كحال

مراجعة
كناز موسى

معارف عامة

آنا كويندلين

كيف غيّرت القراءة حياتي

«لم تكتف رحلاتي في ثنايا الكتب بأخذي إلى عوالم أخرى، بل جعلتني أغوص في أنحاء عالمي أيضًا، إذ عرّفتني من أنا، ومن أردت أن أكون، وما قد أطمح له، أو أتجرأ أن أحلم به، سواءً بشأن عالمي أو ذاتي أيضًا. كانت معرفتي هذه أشدّ قوة وإقناعًا من «نواهي» الوصايا العشر (الوصايا التي جاء بها النبي موسى عليه السلام). لقد تعلمت التمييز بين الخير والشر، بين الصواب والخطأ. وصف كتاب «السفر في أنحاء الكون»، وهو أحد كتب طفولتي المفضلة، ذلك الشر الكامن في بُعدٍ مختلف عن البعد الذي نعيش فيه، لكنني شعرت أنني كنت أنا أيضًا موجودةً، في أغلب الأوقات، في بُعد مختلف عن البعد الذي يعيش فيه جميع من أعرفهم. كان هناك يقظة وكان هناك نوم، وكان هناك كتب تصنع لي كونًا موازيًا قد يحدث فيه أي شيء، وغالبًا ما كان يحفل بغرائب الأشياء. قد أكون قادمة جديدة على ذلك الكون، لكنني بالتأكيد لم أشعر بأنني غريبة فيه على الإطلاق، فهو عالمي الحقيقي الصادق؛ إنه جزيرتي المثالية».

كتب، كتب، كتب!

لقد اكتشفت سر غرفة الثياب.

فهي تحوي صناديق مكدسة عليها اسم والدي. مكدسة إلى السقف، تفترش أنحاء الغرفة، حيث كنت أزحف داخلةً إليها وخارجةً منها، متجولةً بين الصناديق وكأنها مستحاثات تمد جذورها في أعماق الماضي، وكأني فأر رشيق صغير يتجول بين أضلاع حيوان المساتودون الضخم (كائن منقرض يشبه الفيل).

كنت فأرًا يقضم هنا وهناك، في هذا الصندوق أحيانًا، وذاك الصندوق أحيانًا أخرى.

يسحب عبر الفتحة في خضمّ الرعب والعجلة وفرح الانتصار، كتابًا إثر كتاب، أدسّه تحت وسادتي، فأسمع نبضاته قلبًا يحتويني في الظلام، قبل ساعة من طلوع الشمس لتسمح لي بالقراءة!

إنها كتبي!

إليزابيث باريت براوننج

«كم هو كبير عدد الأشخاص الذين ولجوا غمار مرحلة جديدة في حياتهم بسبب قراءة كتاب. قد نصادف كتابًا دون موعد مُسبق، فإذا به يمسك بيدنا لنحقق المعجزات، ويكشف النقاب عن معجزات جديدة ما تزال أمامنا»

Telegram:@mbooks90

هنري ديفيد ثورو

(Henry David Thoreau)

ما تزال قصص طفولتي تسكن ثنايا روحي، وقد رواها والدي لأطفالي مرارًا وتكرارًا عندما كنا نتحلّق حول طاولة العشاء، بينما كنت أجلس في تلك الأوقات مخمرّة الوجه مكتفية بالإنصات. كانت قصصه تدور حول الهروب، أو حول أحداثٍ تخطاها النسيان، لدرجة أنها عندما تُروى على مسامعي من جديد، لا أملك إلا أن أشعر بتلك الطفلة الصغيرة التي تتجول هائمة في الشارع، بينما كانت والدتها مشغولة بطفل آخر من جديد، ثم أرى تلك الطفلة بينما تقودها الشرطة إلى منزلها،

بعد أن رآها أحد الجيران تمشي على مهل في الزقاق على بعد شارع شمال منزل أسرتها؛ الطفلة التي وصلت إلى عتبة بيت جدها ولم تكن متأكدةً مما إذا كان أي شخص يعرف أنها ابتعدت كل تلك المسافة لوحدها.

وفي أحيان أخرى، تتسلل ذاكرتي إلى سراديب نفسي؛ أتذكر ركوبي القطار الذي كانت عيناي الطفوليتان تراه عاليًا، متجهةً إلى وسط مدينة فيلادلفيا التي كانت، بالنسبة لي، هائلة مثل إفرست، أو مثل مدينةَ «أوز» أرض العجائب والسحر التي تلهث روحي وراءها. إنها مختلفة جدًا عن الشوارع المنبسطة الهادئة في الضواحي التي نشأت فيها. أتذكر ركوب دراجتي لأميال لأصل إلى الحي الذي يقطنه خالي وخالتي، وهو جادة ضيقة تصطفّ على جانبيها منازل مبنية من الطوب تحتوي على أفنية فيها عربات طويلة. أتذكر ذهابي إلى المطار مع والديّ عندما كنت في الثالثة عشرة من عمري، وقراءتي لوحة توجه الطائرات، ومشاهدتي جميع الأماكن التي كان بإمكاني الذهاب إليها: سان خوان، وسينسيناتي، ولوس أنجلوس، ولندن. أتذكر الموتيلات الجميلة؛ وأدوات الطعام الثقيلة الرخيصة على الطائرات؛ ورائحة البلاستيك والمطهّر والعفن على حافلات جريهاوند القديمة. أتذكّر مشاهدة القطارات تُصدر صوتها الرتيب إذ تمر بي، بينما تلتمع أشعة الشمس ببريقها الأخّاذ على زجاج شبابيكها رغم طبقة الغبار التي تكسوها باللون الرمادي، ورغبتي العارمة في أن أكون على متنها.

ما يثير الاستغراب في كل هذا هو أنني عشت طفولة جميلة في مكان جميل، لا أتذكرها إلا على هذا النحو؛ فقد كانت هكذا حقًا. تنحصر أحلام الناس في الحي الذي نشأت فيه في تربية الأطفال؛ إنهم أناس جميلون ومحظوظون ولكن ليسوا أثرياء، إنهم مجموعة صغيرة ولكنها راضية، تقضي وقتها في قاعة المركز وفي التجوّل بين الأزهار القديمة والشجيرات الصغيرة والطرقات الهادئة. كنا نذهب إلى المدرسة مشيًا على الأقدام، ونتجول بكل حرية في الصيف، ونعرف جميع جيراننا وإخوانهم وأخواتهم أيضًا. ما يزال بعض الأشخاص الذين كانوا زملائي في المدرسة، والذين جلست بجانبهم في الصف السادس والسابع، يعيشون هناك، بل ما يزال بعضهم يعيشون في المنازل التي كان يقطنها آباؤهم ذات يوم.

كنت منذ وقت قريب في البلدة في رحلة عمل، وعزمت على اختبار ذاكرتي في مواجهة الواقع، فقُدتُ سيارتي وتوجهت إلى حارتي القديمة، ومدرستي القديمة، ومنازل أصدقائي المقرّبين. كانت ذاكرتي تحفل بصورة مضخّمة عن كل شيء بالتأكيد، لكن لم يكن ما رأيته أقل مما يسكن ذاكرتي، إذ لم تكن المنازل أصغر، ولم تكن الزهور أقل جمالاً؛ كان الأمر بذات الروعة التي تسكن خيالي، بل ربما أشد روعة، خاصة الآن عندما أصبح الجزء الأكبر من بقية العالم يبدو قاتمًا ومضمحلاً.

ومع ذلك، كان يتملّكني إحساس داخلي على الدوام، حتى عندما كنت صغيرة جدًا، أنني يجب أن أكون في مكان آخر. كنت أتجول هائمة على وجهي، على الرغم من أنني لم يكن لدي في حياتي اليومية أيّ مكان أقصده، ولا يوجد أيّ سبب يمكن تخيله لتفسير رغبتي الشديدة في مغادرة بلدتي. كانت الحافلات تغادر إلى الطريق السريع بدوني؛ بينما تندفع القطارات غير مكترثة، بينما كنت أتجوّل في أنحاء العالم من خلال الكتب: لقد زرتُ إنجلترا خلال العصر الفيكتوري في صفحات «ميدلمارش» (*Middlemarch*) و«الأميرة الصغيرة» (*A Little Princess*)، وذهبت إلى سانت بطرسبرغ قبل سقوط القيصر مع «آنا كارنينا» (*Anna Karenina*). ذهبت إلى تارا، وماندرلي، وثورنفيلد هول، كل تلك المنازل الرائعة، بسقوفها العالية وما تحفل به من الدراما الراقية، بينما كنت أقرأ «ذهب مع الريح» (*Gone with the Wind*)، و«ريبيكا» (*Rebecca*)، و«جين آير» (*Jane Eyre*).

عندما كنت في الصف الثامن، تقدمتُ لإجراء اختبارٍ لمنحة دراسية في مدرسة الدير؛ بدأ سؤال المقابل باقتباس: «إن ما أقوم به الآن أفضل بكثير جدًا مما قمت به في أي وقت مضى؛ والراحة التي أجدها أفضل بكثير جدًا من الراحة التي عرفتُها من قبل». وفي وقت لاحق، وبينما كنت أتناول وجبة الغداء المكونة من سلطة سمك التونة القاسي والغريب الطعم، عبّرتْ بعض الفتيات الأخريات على طاولتي عن حيرتهن بشأن مصدر الاقتباس والمعنى الذي يحمله. كنت متأكدة في تلك اللحظة، قبل أسابيع من تسلّم والديّ خطاب القبول من الراهبات، أنني قد حصلت على

المنحة. كيف لا وقد عايشت ذلك الاقتباس في المرات العديدة التي صعدت فيها تلك الدرجات إلى المقصلة مع سيدني كارتون أثناء ذهابه إلى تلك الراحة الأفضل بكثير في نهاية «قصة مدينتين» (*A Tale of Two Cities*).

كان هذا الكتاب بالنسبة لي مثل الكثير من الكتب الأخرى التي قرأتها، إذ لم يبدُ لي أنه مجرد كتاب فقط، ولكنه كان أشبه بمكان عشت فيه، وزرته وسأزوره مرة أخرى، تمامًا مثل كل الشخصيات المحظوظة المباركة التي تعيش في تلك الكتب - آن أوف غرين غيبلز، وهيدي، وجاي غاتسبي، وإليزابيث بينيت، وسكارليت أوهارا، وديل وسكوت، وميس ماربل، وهيركول بوارو- والتي أراها أكثر واقعية من الأشخاص الحقيقيين الذين أعرفهم. كان منزلي يقع في مكان جميل في أطراف فيلادلفيا، لكنني عشت حقًا في مكان آخر؛ عشت في طيّات أغلفة الكتب التي كانت أكثر واقعية بالنسبة لي من أي شيء آخر في حياتي. ما تزال إحدى القصائد محفورة في سراديب ذاكرتي منذ أيام المدرسة الابتدائية، للشاعرة «إميلي ديكنسون»: «لا توجد سفينة مثل الكتاب / تأخذنا إلى الأراضي البعيدة / ولا توجد فرس سريعة مثل صفحة / من الشعر الرشيق».

ربما لا يمكن إلا لطفل ساخط حقًا أن يكون مفتونًا بالكتب كما كنت، ربما كان القلق نتيجةً طبيعية لا بد منها للإدمان على القراءة. كان في منزلنا كرسي وثير كبير، ذو ذراعين انسيابيين مربع الشكل، يجثم في إحدى زوايا غرفة المعيشة؛ الزاوية المقابلة للموقد، مع طاولة على شكل برميل بجانبه. لطالما تمدّدت عليه، أقرأ وساقيّ النحيلتين الصغيرتين متدليتين فوق أحد ذراعيه. تراني والدتي، فتقول: "إنه يوم جميل، كل أصدقائك في الخارج". لطالما كانت تقول ذلك؛ في الخريف والربيع، بل حتى عندما يتساقط الثلج. كان كلامها صحيحًا؛ كانوا دائمًا في الخارج. كنت أخرج معهم في بعض الأحيان، بعد إقناعي بالخروج إلى الشارع، إلى الحقول الممتدة، على طول الجدول، يدفعني ما عرفت بشكل حدسي أنه الطفولة الطبيعية، والوعد بأن أكون طفلة طبيعية على النحو الذي عرفته غريزيًا؛ طفلة تعيش بصخب في العالم.

لديّ ذكريات واضحة عن هذا النوع من الحياة؛ عن رفع الصخور في الجدول الذي ينساب عبر نهر «نايلورز رن» للبحث عن جراد البحر، عن وضع البنسات على سكة العربة والجري لجلبها، بعد أن أصبحت مستوية بعد أن سارت العربة عليها، لكنها في أفضل الأحوال لم تكن ذكريات جميلة أبدًا. كان أفضل جزء مني يقبع دائمًا في المنزل، في أنحاء كتاب كنت قد وضعته على الطاولة مفتوحًا لأعرف أين وصلت في القراءة، وشخصياته الخيالية تنتظرني لأعود إليها كي أعيدها إلى الحياة من جديد، فهذا، بالنسبة لي، هو المكان الذي يضم أناسًا حقيقيين، وأشجارًا تتراقص في مهب الريح، ومياهًا ساكنة كئيبة. ذات مرةٍ ربحت علامة مرجعية (Bookmark) للكتب في مسابقة لتهجئة الكلمات في ذلك الوقت، نُقِشت عليها هذه الكلمات لـ«مونتان» باللون الذهبي: «عندما أقرأ كتابًا، سواءً كان راقيًا أم سخيفًا، يبدو لي أنه على قيد الحياة يتحدث معي»، وجدت هذه الإشارة المرجعية منذ وقت ليس ببعيد، في أسفل أحد الصناديق، عندما كان والدي ينتقل من بيته.

علمت خلال السنوات التي مرّت مذ كنت أجلس في ذلك الكرسي أنني لست الوحيدة التي تشعر بذلك، على الرغم من أنني كنت بالتأكيد في ذلك الوقت، الطفلة الوحيدة التي أعرفها، أو يعرفها والداي، أو أصدقائي، التي تفضّل القراءة على اللعب بلعبة الغميضة أو التزحلق على الجليد أو مجرد الجلوس على الرصيف وتكسير العصي وتجريف التراب بفردة حذاء رياضي في الصيف. لم تكتف رحلاتي في ثنايا الكتب بأخذي إلى عوالم أخرى، بل جعلتني أغوص في أنحاء عالمي أيضًا، إذ عرّفتني من أنا، ومن أردت أن أكون، وما قد أطمح له، أو أتجرأ أن أحلم به، سواءً بشأن عالمي أو ذاتي أيضًا. كانت معرفتي هذه أشدّ قوة وإقناعًا من «نواهي» الوصايا العشر (الوصايا التي جاء بها النبي موسى عليه السلام). لقد تعلمت التمييز بين الخير والشر، بين الصواب والخطأ. وصف كتاب «السفر في أنحاء الكون»، وهو أحد كتب طفولتي المفضلة، ذلك الشر الكامن في بُعدٍ مختلف عن البعد الذي نعيش فيه، لكنني شعرت أنني كنت أنا أيضًا موجودةً، في أغلب الأوقات، في بُعد مختلف عن البعد الذي يعيش فيه جميع من أعرفهم. كان هناك يقظة وكان هناك نوم، وكان هناك كتب تصنع لي كونًا موازيًا قد يحدث فيه أي شيء، وغالبًا ما كان يحفل

بغرائب الأشياء. قد أكون قادمة جديدة على ذلك الكون، لكنني بالتأكيد لم أشعر بأنني غريبة فيه على الإطلاق، فهو عالمي الحقيقي الصادق؛ إنه جزيرتي المثالية.

وبعد العديد من السنوات اكتشفتُ، كما فعل روبنسون كروزو عندما وجد مان فرايدي، أنني لم أكن وحدي في ذلك العالم أو في تلك الجزيرة. اكتشفتُ (من خلال القراءة، بطبيعة الحال) أنني بينما كنت متمددة مرخية ساقيّ في ذلك الكرسي مع كتاب في يدي، كانت جامايكا كينكايد جالسة تحت وهج الشمس الكاريبية في أنتيغوا وهي تقرأ بنفس الطريقة التي كنت أقرأ بها، كما لو كانت تتضور جوعًا والكتاب خبزها. وعندما كبرتْ، وصارت تؤلف الكتب، وفازت بجوائز عن أعمالها، تحدثت في إحدى مذكراتها عن إهمالها لشقيقها الصغير عندما كان من المفترض أن تعتني به: «أحببت قراءة الكتاب أكثر مما أحببت الاعتناء به (بل إنني حتى الآن أحب قراءة الكتب أكثر مما أحب الاعتناء بأطفالي...)».

بينما كنت في كرسيّ ذاك مستأنسة بكتابي، كانت هازل روتشمان (*Hazel Rochman*) وزوجها في جنوب أفريقيا يدفنان صندوقًا قديمًا من الصفيح مثقلاً بكتب ثمينة في الفناء الخلفي، خوفًا من أن تداهم الشرطة منزلهما وتفتشه بحثًا عن كتب ممنوعة. وقد لخّصت روتشمان، التي غادرت جوهانسبرغ إلى شيكاغو وأصبحت محررة لـ«بوك ليست» في رابطة المكتبات الأمريكية، الدروس المستقاة من تلك الليلة، حول قوة القراءة، بطريقة أدركتُ كنهها وأنا مازلت مجرد فتاة صغيرة، إذ كتبتْ بعد سنوات: «تجعلنا القراءة مهاجرين، تأخذنا بعيدًا عن المنزل، ولكنها تمنحنا منازل في كل مكان، وهذا أهم ما في الأمر».

وبينما كنت في كرسيّ ذاك أيضًا مستأنسة بكتابي، كانت أوبرا وينفري تعيش طفولتها مقسّمة بين والدتها في ميلووكي ووالدها في ناشفيل، لكنها كانت تجد منزلها الأكثر ثباتًا في ثنايا كتبها. وحتى بعد مرور عقود، عندما أصبحتْ مضيفة في برنامجها الحواري الذي يحمل اسمها، وكانت قد أصبحت أحد الفنانين الأعلى دخلاً في العالم، ومؤسّسة نادٍ للقراءة يُبثّ على الهواء والذي أدى إلى بيع ملايين النسخ من الروايات الأدبية الجادّة، كانت وينفري ما تزال تشعر بلسعة ألم وهي تتحدث

إلى مراسل من مجلة «لايف» قائلة: «أتذكر عندما كنت في المدخل الخلفي وأنا في التاسعة من عمري - سأحاول أن أقول هذا دون ذرف الدموع - وفتحت أمي الباب بعنف شديد وخطفت الكتاب من يدي وقالت: «أنت لا شيء سوى.. سوى دودة قراءة. هيا إلى الخارج! هل تعتقدين أنك أفضل من الأطفال الآخرين، لقد تعاملت معي كما لو كنت أعاني من خطب ما لأنني أردت القراءة طوال الوقت».

لقد كانت القراءة دائمًا بيتي، ومنبع قوتي، ورفيقي الذي لا يقهر. يقول ترولوب عن هذه الحالة: «حبّ الكتب، إنه يجعلك تحلّق في سماء المتعة، طالما هناك نبض في قلبك». ومع ذلك، ومن بين كل الأشياء الكثيرة التي نجد فيها بعض الراحة الشاملة - الله والجنس والطعام والأسرة والأصدقاء - يبدو أن القراءة هي التي تستحوذ على أدنى اعتراف بالراحة التي تمنحها، علنًا على الأقل، رغم أنها كانت كل ما فكرتُ به حقًا، أو شعرت به، عندما كنت ألتهم الكتب واحدًا إثر الآخر، هاربة بذلك بعيدًا عن المنزل بينما كنت جالسة في ذلك الكرسي، مسافرة في أنحاء العالم، دون مغادرة الغرفة مطلقًا. لم أكن أقرأ بدافع الشعور بالتفوق، أو التقدم، أو حتى التعلم؛ لقد كنت أقرأ لأنني أحببت القراءة أكثر من أي نشاط آخر على سطح البسيطة.

عندما كبرت في العمر وأصبحت بالغة، أدركت أنه على الرغم من عدم تراجع الرضا الذي كان يملأ روحي لمجرد القيام بفعل القراءة بحد ذاته، إلا أن العالم في كثير من الأحيان كان معاديًا، أو على الأقل متعامٍ عن تلك البهجة، كما الحال مع صديقاتي إذ يطرقن باب بيتنا بعنف، متوسلاتٍ كي أضع الكتاب من يدي، «ذلك الكتاب الغبي» كما كنّ يصفنه عادة، بغضّ النظر عن نوع الكتاب الذي أمسك به. وفي حين أننا نُولي اهتمامًا كبيرًا لفضائل القراءة بأطراف ألسنتنا، إلا أنّ الحقيقة هي أنه ما تزال ثقافتنا تعاني من علّة الارتياب من أمر أولئك الذين يقرؤون أكثر من اللازم، أيا كان المعنى المقصود من «أكثر من اللازم»، فهم مجموعة من الحالمين الكسالى بلا هدف، لا يملكون ما يكفي من النضج، لأن يغادروا كهف قراءتهم ليخرجوا إلى حيث الحياة الحقيقية، بل يعتقدون بتفوقهم على الآخرين من خلال انفصالهم عنهم.

هناك شيء ما في الشخصية الأمريكية معادٍ، ولو سرًّا، لفعل القراءة بلا هدف، إنه

نوع من الشعور القويّ الجامح الذي يرتاب من القراءة إذا تمّ اعتبارها شيء أكثر من مجرد أداةٍ للتقدم، ذلك لأننا نعيش في بلد يحب الثقة ولكنه يحتقر الغطرسة، بلد يربط بين «الانغماس في القراءة» والشعور الخفي بالتفوق نفسه الذي كانت تعاديه والدة السيدة وينفري. أمريكا هي أمة تقدّر الحياة الاجتماعية والتواصل مع الآخرين، كما أنها تؤمن بالحالة النفسية التي تُدعى تأثير الدومينو: انعزال الشخص يؤدي إلى شعوره بالوحدة، والشعور بالوحدة يؤدي إلى الفشل. أي نوع من غضّ الطرف عن الاتصال البشري أمر مثير للشبهات، خاصةً عندما يتعارض هذا الابتعاد عن الآخرين مع الأخلاقيات المتأصلة في صميم شخصيتنا الوطنية المتمثلة في الانطلاق إلى زخم الحياة بكل اندفاع. انظر إلى صور الرؤساء الأمريكيين العالقة في ذهنك تجد أنها تصوّرهم كرجال جسورين في خضمّ الحدث: ثيودور روزفلت في رحلات السفاري، وجون كينيدي يلعب كرة القدم مع إخوته. لن يجد مدمن القراءة عزاءه إلا في لنكولن الذي تحمل أذهاننا عنه صورة نمطية لشخص منعزل يجلس قرب الموقد، لا سيما حين يسمعه يقول: «صديقي المفضل هو الشخص الذي يقدم لي كتابًا لم أقرأه بعد».

أثناء نشأتي، كان يتنامى نوع من الاحتراف المهني في الولايات المتحدة يحظر القراءة، إلا إذا كان هناك سبب لها. لطالما سئل الطلاب في أفضل كليات الفنون والآداب في البلاد الذين تخصصوا في الفلسفة أو اللغة الإنجليزية عما «سيفعلون بها» كما لو أن المساعي الفكرية البحتة التي تؤمن بالقراءة من أجل القراءة كان لها عزّها، لكن أيامها ولّت بسبب ضغط العمل، وتم استبدال القراءة من أجل المتعة بالقراءة لغرض معين، لتكون نوعًا من التحسين الذاتي المتقن، في حين أن المسؤول التنفيذي قد يتعلم الكثير من «موبي ديك» (*Moby Dick*) أو «الرجل الذي يرتدي البدلة الفلانيل الرمادية» (*The Man in the Grey Flannel Suit*)، إلا أنه من المتوقّع أن قراءته لن تتخطى بالفعل «كتاب العادات السبعة للأشخاص الناجحين» (*The 7 Habits Of Highly Effective People*). أصبحت القراءة من أجل المتعة، بدافع الرغبة الداخلية البحتة، موضع استغراب مثل ركوب المترو بلا غاية من مكان لآخر، أو قيادة السيارة من مكان ما إلى مكان آخر دون سبب.

وبالمناسبة، أحب أن أفعل هذين الأمرين أيضًا، ولكن مقدار حبي لهما لا يرقى إلى نصف عشقي للقراءة.

عملتُ في مجال الصحافة لسنوات عديدة، حيث كنت أرى الطبعة اليومية للصحف بمثابة شهادة، قد تكون واهية ولكنها بالتأكيد بليغة، بعد تعطّش للكلمات والمعلومات والخبرات. ولكن بالنسبة للصحفيين المزاولين للمهنة، غالبًا ما كانت القراءة تُعدّ في النصف الثاني من القرن العشرين سلسلة من المشكلات التي يجب معالجتها في الصحف: هل يقرأ الأطفال في المدارس العامة بشكل سيئ؟ هل تراجعت عادة القراءة عند الأمريكيين عما كانت عليه؟ هل تتراجع الكلمة المطبوعة مفسحة المجال للكلمة المنطوقة؟ هل حلّ التلفزيون والأفلام محل الكتب؟ كانت الإجابة الصحفية، في معظم الأحيان، نعم، نعم، نعم، مدعومة بمجموعة متنوعة من الإحصائيات التي، كما يحدث في كثير من الأحيان، تم التلاعب بها لجعلها أكثر قابلية لدى الجمهور لإثبات هذه النقطة «تمرّ القراءة بأوقات عصيبة». وفي الأوساط المكرّسة للنقد الأدبي، بين أساتذة الأدب، ومحرّري ومؤلفي الكتب الأدبية، كان هناك في بعض الأحيان نوع من الحصرية الرهيبة المحيطة بمناقشات القراءة، فبالنسبة لهم هناك قراءة جيدة، وقراءة سيئة، كتب جديرة بالقراءة، وأخرى تافهة. كانت هذه النقاشات تُقدّم بلباس من اللياقة من حيث الذوق، لكنها بدت بما لا يدع أدنى مجال للشك بأنها نوع من الغرور.

لم يكن هذا الأمر جديدًا على أية حال، لكنّ اكتشافي له هو الجديد فحسب. لطالما استُخدمت القراءة كوسيلة لتقسيم البلد والثقافة إلى مجموعتين: رجال الأدب وباقي البشر، الأشخاص ذووا الفكر النيّر وعامة الناس. لكن، في القرن الخامس عشر، اخترع غوتنبرغ المطبعة، وهكذا بدأت عملية تحويل الكتاب من عمل فني للنخبة، إلى مصدر معلومات للعامة. بعد ذلك، أصبح من الصعب على مجموعة صغيرة من الناس أن يحتكروا حقهم الحصريّ في الكتاب، وأن يحتكروا القراءة دون غيرهم. ولكن، لم يختفِ ذلك الشعور بالاستئثار بالكتاب، فقد استمر في الوجود عند النقاد ورجال المعرفة. عندما بدأتُ في قراءة أعمالهم، في الكلية، شعرت بالإحباط لاكتشاف أن الكثير منهم شعروا أن جودة الشعر، والنثر، والروايات، والتاريخ،

والسيرة الذاتية، كانت تضمحلّ لتصل إلى مستوىً فكري وضيع، لكن القراءة أنقذتني من اليأس، كما كانت تفعل دائمًا، فكلما قرأتُ أكثر، أدركت أنه لطالما كان الوضع هكذا، وأنه كان من الواضح أن جزءًا أساسيًا من دراسة الأدب، سواء في 1840 أو 1930 أو 1975، كان يخلص إلى التحسّر على العصر الذهبي الذي مضى إلى غير رجعة. قالت المجلة المتخصصة في صناعة الأدب، بابليشرز ويكلي (Publishers Weekly)، بحسرة عام 1923 : «تستهلك الأفلام جزءًا كبيرًا من وقت الفراغ في البلاد، حيث لا يتبقى سوى القليل من الوقت للقيام بأشياء أخرى». وعبّر الكاتب الفرنسي لويس فرديناند سيلين (*Louis-Ferdinand Celine*) عام 1960 عن الفكرة ذاتها قائلاً: «لا يمكن أن تتنافس الرواية مع السيارات والأفلام والتلفزيون، والمشروبات الكحولية».

من المؤكد أنه لم يكن هناك أي حديث عن الراحة والفرح، عن الثقافة الفرعية النابضة بالحياة لنا نحن الذين كنا على الدوام نغفوا بينما يبقى كتابنا مفتوحًا على الطاولة جانب السرير، سواء كان كتابًا مُشترىً أو مُستعارًا. نحن الذين نشكل الأتباع المخلصين الحقيقيين للكتاب، الذين لا يقرؤون كي يحكموا على قراءة الآخرين، بل كي يحسّنوا فهم ذواتهم على نحو أفضل. نحن الذين نقرأ لأننا نحب القراءة أكثر من أي شيء آخر في هذا العالم، ونكنّ للمكتبات الشعور ذاته الذي يكنّه الآخرون نحو المجوهرات. كان الصمت حول هذا الأمر غريبًا، لأن هناك الكثير منّا - نحن عشاق الكتب - ولأننا نشكّل مضمون عالم الكتب. نحن الأشخاص الذين انتظروا فيما مضى للحصول على أحدث إصدار من رواية ديكنز الأخيرة، واحتفظوا بنسخ مهترئة من رواية «الحارس في حقل الشوفان» (*Catcher in the Rye*) في جيوبنا الخلفية وحقائب ظهرنا. نحن الذين اعتقدنا أن رواية «كبرياء وتحامل» (*Pride and Prejudice*) لن يتوقف طبعها مطلقًا.

ولكن لم يكن هناك إلا القليل من الحديث العلنيّ بشأننا، إلا في المذكرات، مثل مذكرات السيدة كينكايد (*Ms. Kincaid's Memoirs*). لم يتغير شيء منذ أن كنتُ طفلة منعزلة يهديها أقاربها في عيد الميلاد قاطع كتاب جلدي مزيّن لتستخدمها في كتبها. كنا - نحن عشاق القراءة - نتعرّف على بعضنا في كراسي المطالعة؛ في

متاجر الكتب وأذرعنا محمّلة بالعديد من الكتب، في الطاولات الأمامية في مكتبات المطالعة، في المدرسة، حيث عرّفنا المعلمون على بعضنا البعض، وبالطبع في الكتب ذاتها، حيث يخلق عشاق الكتب ثقافة فرعية مفعمة بالحياة من الشخصيات الأدبية. يقول سكوت في رواية «أن تقتل طائرًا محاكيًا» (*To Kill a Mockingbird*): «لم أشعر بحبي للقراءة إلى أنْ خشيت أن أفقدها، فكيف للمرء أن يحب التنفس».

تشبه القراءة جوانب عديدة في ثقافتنا، بل في جميع الثقافات؛ تكمن حقيقتها في عشاقها وليس في نقادها واختصاصييها. إذا صدّقتْ ما قرأته عن القراءة فسأصاب باليأس، ولكن بدلاً من ذلك، هناك رسائل من القراء تسترعي اهتمامي، مثل تلك الرسالة التي وردت من فتاة قدّمتْ لها والدتها أحد كتبي، استهلّتها بقولها: «أعتقد أنني ما يسميه بعض الناس دودة قراءة».

أجبتها قائلة: «وأنا كذلك».

«لا يجب طلب الكتب وتزويدها على افتراض أن عملية القراءة شبيهة بالنوم؛ بل لأنها بالمعنى الأسمى تمرين، وكفاح قائم على الرشاقة والتوازن كالجمباز؛ يحث القارئ كي يقدّم شيئًا لذاته».

والت ويتمان

(Walter Whitman)

لا يزال الأمر شديد الغموض بالنسبة لي، حينما أجد البعض منا لا يكتفي ببناء حياة بل روح، معتمدين لذلك على توقهم الشديد لقراءة تلك الكلمات المرسومة على قطعة من الورق. بعد ستة آلاف سنة من تلك الرسوم التي ترصد قطيعًا من الماشية على لوح من الطين والتي صنعت بذلك القراءة، لا تزال في هذا العالم ثقافات تعتبر الكلمة المكتوبة لغزًا، وترفًا، بل حتى إسهابًا. لا تزال القصص تُسرد بجانب الموقد والجداول من قبل أشخاص أنهكهم العمل في الحقول، وذلك على أروع ما يكون كما كان يفعل والدي وإخوانه عندما كانوا يتشاركون وجبتهم معًا وهم يطرزون نسيجِ ماضيهم دائمِ التغير في خيالهم. تمتلك القصة المروية لغزًا سحريًا وطبيعيًا،

ترى فيه الرجل الحكيم يَحبِك قصة وهو جالس إلى الطاولة في أوروبا العصور الوسطى، مفسحًا المجال أمام الأم لتتحدث عن تاريخ عائلتها في المطبخ مع أطفالها في شقة صغيرة في شيكاغو. لقد اكتسبت قوة الكلمة المنطوقة نوعًا جديدًا من الحياة في نهاية القرن العشرين، عندما بدأت دور النشر بفعل ما لم تفعله من قبل إلا المكتبات المخصصة للمكفوفين: إصدار نسخ صوتية من الكتب. وعلى الرغم من أنني أعتقد أحيانًا أن الكتب الصوتية جيدة من حيث توفير الوقت والتخفيف من عبء السفر بالسيارة أكثر مما هي جيدة من حيث الحاجة إلى سماع المقاطع الصوتية تداعبها الأصوات البشرية، لكن فعلَ القراءة بحدّ ذاته، فعل رؤية القصة مكتوبة على الصفحة، بدلاً من سماعها تُروى، محوِلاً القصة إلى لغة محددة غير قابلة للتغيير، ووضع هذه اللغة في شكل ملموس بمساعدة حفنة من الرموز العشوائية التي تقدمها لغتنا، ومن ثم تسليم القصة للآخرين في علاقة أخذ وعطاء، هذا الفعل أكثر تعقيدًا بأشواط بعيدة لا حدود لها، وأكثر غرابة أيضًا، كما لو أن الملايين منا شعروا بالحاجة، على مدى قرون من الزمن، لوضع الرسائل في زجاجات، لتخفيف وطأة العزلة على كل فرد منا، ليشعر بأن الوحدة التي يعاني منها في جزيرته المهجورة صارت أقل وطأة بفضل الكلمات. أو، لنقل ليس فقط من خلال الكلمات ببساطة، بل من خلال الكلمات المكتوبة المتحررة من لعنة التلاشي التي تعاني منها الكلمات المنطوقة، إنها كلمات تظلُّ دائمًا كما هي تمامًا، فقط يتبدل القارئ كل مرة، بحيث أنه سواء اليوم، أو العام المقبل، أو بعد مائة عام من الآن، يمكن لأي شخص أن يلتقط رواية «قصة مدينتين» *(A Tale of Two Cities)*، وينتقل إلى الصفحة الأخيرة، ويرى الجملة الختامية نفسها التي صاغها ديكنز (Dickens) للقرّاء لأول مرة عام 1859: «إنه شيء أفضل بكثير جدًا...».

في بادئ الأمر استخدم السومريون الكلمة المكتوبة لإعداد القوائم الطويلة، لتسجيل عدد الأبقار والعبيد والسلع المنزلية، ولكن حتى في هذا الشكل البدائي، يخبرنا تدوين الرموز شيئًا ثوريًا وهامًا وغنيًا، وهو أن هناك إمكانيةً في أن يكون لدى الشخص فكرة ما، حتى لو كان محور هذه الفكرة حجم قطعان ماشيته فقط، إذ يتمكن من الاحتفاظ بهذه الفكرة، ومن ثم الوصول إليها من جديد فعليًا من قبل

شخص آخر، في مكان آخر، وزمان آخر. وقد كانت الخاصّية الخارقة والانتقالية لهذا الأمر واضحة على الفور للبعض، بينما رفضها البعض الآخر، حيث قام أرسطو بتحويل الإسكندر الأكبر إلى قارئ مدمن وعاشق للكتب، مما دفع خليفة الإسكندر، بطليموس الأول، إلى إنشاء أول مكتبة عظيمة في العالم في الإسكندرية، لكن سقراط اعتقد أن الكتب كانت مضيعة للوقت، لأن جلّ ما تستطيعه هو «تذكير المرء بما يعرفه مسبقًا».

ربما، لو رأى سقراط عبارته المليئة بالازدراء وقد دبّت الحياة فيها من جديد على الصفحة المطبوعة بعد 2500 عامٍ من شعوره بها لأول مرة - ولو فهم، بالتأكيد، أن بعض القراء، الذين قرأوا كلماته، قد تعلموا بالفعل شيئًا عنه لم يعرفوه من قبل على الإطلاق- لكان هذا المفكر العظيم قد غيّر رأيه بالتأكيد.

وفي الحديث عن الورق، سنجد أن اللوح الطيني قد أفسح المكان لورق البردي، ثم جاءت المخطوطة، أي الأوراق المطوية التي كانت الشكل الأولي للكتاب الذي نمسكه ونبيعه ونعتز به اليوم. كانت الأسر الثرية تمتلك كتب صلواتٍ كتَبها الرهبان وزيّنوها بخط اليد؛ وحفظ قادة الجنود برقياتهم على الورق، بينما قام الفرنسيون والإنجليز بتعديل مطبعة غوتنبرغ، ثم جعلوها آلية لتوثيق النصوص الدينية وإصحاحات الإنجيل. ومن ثمَّ، ثبّت مارتن لوثر بيانه المكتوب على ورقة ضد تجاوزات التسلسل الهرمي الكاثوليكي على باب كنيسة في فيتنبرغ (Wittenberg) وبدأ حربًا كلامية أدّت إلى حركة الإصلاح، وفي نهاية المطاف، إلى البروتستانتية، كما تمت صياغة إعلان الاستقلال، بكلمات قليلة نسبيًا، ليكشف الغطاء عن طريقة جديدة ينظر من خلالها الرجال والنساء إلى حكومتهم.

وسرعان ما توفرت لدى الناشرين الوسائل والإرادة، لنشر أي شيء -كتب الطبخ، والعروض الدعائية، والصحف، والروايات، والشعر، والمواد الإباحية، والكتب المصورة للأطفال- وأصبحت هذه الكتب متوفرة لأغلب الناس في المكتبات ضمن إمكانياتهم المادية. أصبحت القراءة أمرًا ديمقراطيًا متوفرًا للجميع، مما مكّن الكثيرين من تعليم أنفسهم ما كان حكرًا على قلّة فيما مضى ممّن كانوا قادرين على

دفع أجور المعلمين، وصار بإمكان رئيس الدولة أن يستشهد بمارك توين (Mark Twain) لأنه قرأ «مغامرات هاكلبري فين» (*The Adventures of Huckleberry Finn*)، وبإمكان ساعي البريد فهم الاقتباس لأنه قرأه فيما مضى أيضًا. لقد تطلّبت الأكاذيب الكبرى من الديماغوجية المزيد من محاولات التسلل والذكاء، إذ صار بإمكان القراءة المتأنية للكتب والصحف أن تكشف عن عيوب تلك الأكاذيب لعامّة الناس. إذن، كان هناك سبب جعَل النازيين يضيؤون سماء الليل في مدنهم بحرق الكتب، كما كان هناك سبب لمنع الأحرار البيض في أمريكا من أن يعلّموا العبيد القراءة، ولتهديد العبيد في ساوث كارولينا بفقدان أول مفصل من الإصبع الوسطى لديهم إذا تم القبض عليهم يختلسون النظر إلى كتاب ما؛ أصبحت الكتب أعظم مصادر الحقيقة، والحقيقة تجعلك حرًا.

ولكن، كان هناك أكثر بكثير من الحرية؛ أصبحت القراءة جواز سفر إلى عالم لا يعترف بحدود جغرافية أو عوائق زمنية، أصبح هناك ما يُشبه آلة الزمن في عالمنا، ولكنها لم تكن تلك الآلة الغريبة المصنوعة من المعادن والبراغي والمحركات التي تخيلها رجل خصبَ الخيال مثل إتش. جي. ويلز (H. G. Wells). كان سقراط مخطئًا، فبإمكان القارئ أن يعلم أمورًا جديدة من خلال الكتب، أمورًا مرتّ ومضت، ولكنها ما تزال حاضرةً إلى الأبد، من خلال الطباعة. بإمكانه أن يعرف عن طقوس التزاوج في جزر تروبرياند، وعذابات المستوطنين الأوائل من حزب دونر، وشواطئ النورماندي، والدخان المتصاعد من المداخن في أوشفيتز. أصبح العالم مقسّمًا إلى طبقات مثل الأرض: الخبرة، ثم العاطفة، ثم المسطحات الخضراء، وبذلك صارت الحياة ترتقي نحو السمو من خلال الكتب. يموت شهود العيان؛ بينما تعيش الكلمة المكتوبة إلى الأبد. وكذلك الحال بالنسبة للكراهية التي تربط الأخوين في رواية «شرق عدن» (*East of Eden*)، وبحثُ الأنثى عن هوية مستقلة في رواية «دفتر المذكرات الذهبي» (*The Golden Note*). لولا القراءة لما تمكّنا، بعد قرنين كاملين من انتهاء جين أوستن (Jane Austen) من مخطوطتها، أن نلِج عالم «كبرياء وتحامل» (*Pride and Prejudice*) ونجد أنفسنا نتجاوز العادات، والقيود، والوقت، والأعراف، للوصول إلى مكان يعلّمنا ويسلينا ويسحر ألبابنا؛ إنها معجزة. نقرأ

مستلقين في السرير لأن القراءة تقع في منتصف الطريق بين الحياة والحلم، فهي تحافظ على وعينا بالكامل، ولكن تضعه تحت تأثير تعويذة عقل شخص آخر. وكما كتب إي. بي. هوي (E. B. Huey): «إن استطعنا أن نحلّل ما نقوم به أثناء القراءة بالكامل، فسيكون هذا ذروة الإنجازات التي يحلم بتحقيقها أي عالم نفس، لأن تحليلاً كهذا يتضمن وصفًا للكثير الكثير من الأعمال الأشد تعقيدًا للعقل البشري». ومع ذلك، فإننا نأخذ القراءة على أنها أمر تلقائي مسَلّم به، فهي بالنسبة لنا القدرة على تقليب الصفحات ومعرفتنا برأي ابنة أحدهم، بعد موتها بزمن طويل، بمراسيم الزواج في إنجلترا في فترة ريجنسي (Regency England)، وبالتأكيد رأيها بالعلاقات بين الرجل والمرأة إلى الأبد.

الأمر أشبه ما يكون بفرك عودين خشبيين لإشعال النار، هكذا هي عملية القراءة، إذ يستحيل أن تكون أمرًا حياديًا باردًا، فهي تمسك يدك لتأخذك إلى الحرارة والضوء. ربما يصبح هذا واضحًا فقط عندما يراقب المرء طفلاً يحبو على درب القراءة، تبدأ مسيرته مع القراءة مذهولاً في عالمٍ من الغموض، تملأ سنواته أشياء لا يمكنه قراءتها كإشارات التوقف، ووصفات الطعام، والأحرف المترامية هنا وهناك، والتعليمات المكتوبة على العبوات، وفجأة يصبح من البدهي الاعتراف بغرابة وصعوبة تحويل هذه الرموز إلى كلمات، أو جمل، أو مشاعر ومشاهد وعالَم من الخيال. قال مؤلف كتب الأطفال لويس لوري (Lois Lowry) ذلك مرة: «أتذكّر الشعور بالإثارة التي استحوذت علي عندما أدركت للمرة الأولى أنّ لكل حرف صوتًا، وأنّ الأصوات تتضافر معًا لتكوين كلمات؛ والكلمات تصبح جُملاً، ثم تتحول الجُمل إلى قصص» بل إنّ بداية احتكاك الطفل مع القراءة أكثر بدائية من ذلك، إذ إنّ ما يبدأ به لا يُسمى قراءة بقدر ما هو كتابة، إذ يتعلم ربط الحروف التي تشكّل اسمه، ثم يبدأ برحلة تسمية العالم، «هذا هو ما نفعله بالكلمات من تلك اللحظة فصاعدًا»، فكل ما في القراءة من أمر هو أننا في الحقيقة نحاول إيجاد طرق لتسمية أنفسنا، وربما لتسمية الآخرين من حولنا، حتى نُلغي غربتهم عنّا. هذا هو الحال مع كروزو وفرايدي، وإشمايل وأهاب، وديزي وجاتسبي، وبيب وإستيلا، ومعي أنا، أنا، أنا. عندما أقرأ لا أكون لوحدي، بل أصبح محاطة بالكلمات التي تخبرني من أنا، ولماذا

أشعر بما أشعر به، أو أنها ربما تساعدني فقط كي أنأى عن ساعات هطول المطر على سطح الشرفة، لتأخذني بعيدًا عن الكآبة إلى مكان مشمس بعيد.

الشخص الذي غيّر حياتي بهذه الطريقة كان امرأة تُدعى جيرترود لوفورنو (Gertrude LoFurno)؛ كانت صديقةً لوالديّ، وكانت تمتلك كتبًا. قد يبدو هذا أمرًا عاديًا لأطفالي، الذين نشأوا في منزل تصطفّ فيه الكتب على رفوف ممتلئة في كل غرفة تقريبًا باستثناء الحمامات. لكن، خلال نشأتي، لا أتذكر إلا عددًا قليلاً جدًا من المنازل التي كانت تحتوي على كتب، باستثناء المجموعة الضرورية من «الموسوعة البريطانية» *(Encyclopedia Britannica)* المجلّدة بجلد سميك، والمهملة بشكل واضح للعيان، إذ يتراكم عليها الغبار دون أن يقرأها أحد. على الرغم من أن ظهور الكتب ذات الغلاف الورقي في السوق الشعبية والتي كانت تُباع النسخة منها بربع دولار، قد غيّر وإلى الأبد عدد الأمريكيين الذين يمكنهم شراء الكتب، إلا أننا لم نمتلك الكثير من هذه الكتب، كما أنني لم أكن أحبها كثيرًا؛ كنت أحب الكتب التي تشعر يدي بثقلها، التي تتمتع بنوع من إثبات الوجود القوي، كنت أحب الكتب الثقيلة وكأنها كيس من السكر.

كان عند والدِي نسخة من مكيافيلي (*Machiavelli*) وكتاب بعنوان «فن الحكمة الدنيوية» (*The Art of Worldly Wisdom*) كتبه يسوعيّ يُدعى بالثاسار غريشان (Balthasar Gracián). كما كان لديّ نسخة مزخرفة من كتاب «حياة القديسين» (*Lives of the Saints*) وسيرة حياة القديسة تيريز دو ليزيو (*St. Thérèse of Lisieux*). أتذكّر أنني مررت بفترة كنت مفتونة خلالها، بل كنت متعطشة، للاستشهاد الدموي، إلا أنها لم تدم طويلاً. اشتركت والدتي في كتب ريدرز دايجست المختصرة، كما فعلت أمهات معظم أصدقائي. بدأت المجلة سلسلة كتبها في عام 1950 بسبب نجاح قسم الكتب، وأصبحت أغلفة تلك الكتب، التي كانت تحتوي على أربعة عناوين مرتبة أفقيًا، معروفة على الفور لنا، نحن الذين نشأنا في الخمسينيات والستينيات. لقد كانت تلك الكتب من العلامات المميزة للطبقة الوسطى في منتصف القرن مثل جزازة العشب أو التلفزيون.

أحببت الكتب المختصرة، وعشوائيتها في اختيار ما تقدّمه، إذ أنك تجد جون ماركاند *(John Marquand)* في نفس المجلد مع «القبض على اللص» *(To Catch a Thief)*، شتاينبك (Steinbeck) جنبًا إلى جنب مع كارين (Karen)، وهي مذكرات طفلة مصابة بالشلل الدماغي كتبتها والدتها. ما زلت أقرأ بالطريقة ذاتها التي تعلمتها في ذلك الوقت، وأستمتع بمجموعة متنوعة من تلك الكتب؛ كتاب صعب يليه شيء أكثر خفة كمكافأة، كتاب جادّ كالعشاء، وآخر خفيف كالحلوى. على الرغم من أن أحد الكتب المختصرة الذي ما أزال أذكره بشكل خاص، تضمن نسخًا مختصرة من «شتاء سخطنا» *(The Winter of Our Discontent)*، و «المعاناة والنشوة» *(The Agony and the Ecstasy)*، و «صناعة الرئيس: 1960» *(The Making of the President: 1960)*. من نافل القول أن تلك الكتب أدبية بشكل كامل؛ لم يكن هناك أبدايك (Updike)، أو ميلر (Mailer) أو فيليب روث (Philip Roth)، لا شيء من تأليف جون شيفر (John Cheever)، ولكن تم نشر عملٍ لفولكنر (Faulkner) في تلك السلسلة أكثر من مرة، وكذلك أيضًا ترومان كابوت (Truman Capote)، وتلك الروائية التي فاجأت الجميع بحصولها على جائزة نوبل، بيرل إس. باك (Pearl S. Buck). توحي قائمة العناوين التي دامت أكثر من خمسين عامًا بغنى التيار الأدبي للطبقة الوسطى في الروايات الأمريكية خلال الخمسينيات والستينيات، والذي اضمحل لاحقًا بدرجة كبيرة. كان هناك «تمرّد كين» *(The Caine Mutiny)* لهيرمان ووك (Herman Wouk)، و «العملاق» *(Giant)* لإدنا فيربير (Edna Ferber)، و «مطاردة هيل هاوس» *(The Haunting of Hill House)* لشيرلي جاكسون (Shirley Jackson)، و«شجرة تنمو في بروكلين» *(A Tree Grows in Brooklyn)* لبيتي سميث (Betty Smith).

لكن معظم الكتب التي قرأتها كانت من مكتبة المدرسة الكاثوليكية الخاصة الصغيرة التي التحقت بها، والتي كانت جيدة على غرار مكتبات المدارس بالعموم. كانت أغلفة الكتب مزدانة باللونين الذهبي والفضي؛ وكانت أمينة المكتبة تشتري دائمًا أي كتاب يفوز بجوائز كالديكوت (Caldecott) و نيوبيري

(Newbery). ولهذا السبب، تمكنتُ من قراءة بعضٍ من أفضل الكتب التي قرأتها في حياتي منذ ذلك الحين: «شائبة في الزمن» (A Wrinkle in Time)، و«شبكة تشارلوت» (Charlotte's Web)، و«كشك تحصيل الضرائب الوهمي» (The Phantom Tollbooth)، لكن حتى المكتبة المدرسية الصغيرة الغنية يمكن أن تُستنفد بسرعة من قبل قارئ مدمن، حتى أنني قرأت «جزيرة الدلافين الزرقاء» (Island of the Blue Dolphins)، و «ساحرة بركة الشحرور» (The Witch of Blackbird Pond)، والعديد من السير الذاتية التي تروي حياة فلورنس نايتنجيل (Florence Nightingale)، وإليزابيث الأولى (Elizabeth I)، وجون آرك (Joan of Arc)، ومولي بيتشر (Molly Pitcher)؛ حسنًا، لقد قرأتهم جميعًا.

كنت في العاشرة من عمري تقريبًا عندما بدأت السيدة لوفورنو بالسماح لي باستعارة كتبٍ من قبوها، تختلف عن تلك التي كنت أستعيرها من مكتبة المدرسة، إذ كانت بدون أغلفة بلاستيكية، دون بطاقات في جيوب ورقية بنية اللون في الخلف مليئة بأسماء جميع من قرأوا هانز برينكر (Hans Brinker) وسيلفر سكييتس (Silver Skates) قبلي. كانت أغلب كتبها قديمة بالمقارنة مع ما كنت قد قرأته، تتميز برائحة الغبار الحلوة التي تتمتع بها الكتب القديمة. كانت تحتوي على لوحة اسمية في المقدمة، بعضها ذات لون بنيّ داكن، تعبق برائحة غامضة من نوع مختلف من العالم؛ عالم من الشاي، والنار المتلألئة في الموقد، والمفارش على مساند الكراسي، وبشكل ما، عالم يعيش فيه الناس كي يقرؤوا باستمرار دون كلل، بشغف، بإخلاص، بطريقة لا يفعلها أحد في عالمي، سواي أنا. لقد كان عالمًا يعتزّ بالكتب، ويكرّمها، بل يحفظها على رفوف خاصة، وفي الوقت ذاته، كان عالمًا صاغ شكله الخيالي في ذهني من الكتب نفسها. لا أستطيع أن أتذكّر بالضبط كيف راودتني فكرة أنّ السيدة لوفورنو نفسها تعيش حياة سرّية شقّت طريقها بالإجمال من رواية إدواردية من الدرجة الثانية، وأنها قد ترعرعت على يد خالاتها بعد وفاة والدتها، إذ إنّ والدها كان يحاول لعب دور الأب بالتأكيد، ولكن شخصيته لا تناسب مشاركة طفلة في حياتها اليومية على طاولة الطعام وما إلى ذلك؛ وأنها قد أُرسلت إلى إحدى مدارس الأديرة. (في الواقع، يخطر في بالي الآن أنني ربما كنت أخلط

بينها وبين سارة كرو (Sarah Crewe) في رواية «أميرة صغيرة» (*A Little Princess*). كان خيالي دائمًا يُضفي نفحةً غامضة من حياة البذخ في ذهني حول هذا التاريخ الجميل، أو ربما لم يكن الأمر مرتبطًا بالبذخ بل بالنبالة والرقي؛ نوع معين من عالم هنري جيمس (Henry James) الذي لم أربطه بامتلاك الكتب فقط بل بوجود رفوف من الكتب تمتد على جدران كاملة. كانت المرة الأولى التي تقفز فيها صورة هذا العالم أمامي بالفعل عندما كنت في الكلية وذُعيت، مع بقية زملائي في مقرر الكتابة، إلى منزل أستاذتنا، الناقدة الأدبية إليزابيث هاردويك (Elizabeth Hardwick). تميّزت غرفة المعيشة في شقتها في نيويورك بأنها عالية جدًا، مع كتب تصطفّ على الجدران يلاصق الواحد منها الآخر، بل إنني أتذكر وجود سلّم مكتبة حتى. كان الأمر كما لو أنّ حياتي قد وصلت إلى مبتغاها بطريقة ما، في اللحظة التي وطأت فيها قدمي تلك الغرفة.

لم يكن قبو السيدة لوفورنو كبيرًا، ومع ذلك، شكّل العدد الصغير من الكتب المترامية في أنحاء الغرفة تذوّقي الأول لهذا النوع من العظمة. كانت كتبًا منتقاة بعناية من لغات مختلفة، يمكنني أن أصِفها بلغة النقد الأدبي، التي تعلمت استخدام مصطلحاتها، أو على الأقل تقليدها (مع أني أحتقرها سرًا)، بأنها لا تسير على نسق واحد. كان هناك رواية «نساء صغيرات» (*Little Women*) إلى جانب الكثير من روايات فرانسيس هودسون بورنيت (Frances Hodgson Burnett) وبعض الكتب الجذّابة للفتيات التي كُتبت بين الحربين العالميتين. كانت هناك رواية «فتاة من ليمبرلوست» (*A Girl of the Limberlost*)، التي لم يعد أحد يقرأها، إلى جانب رواية «كبرياء وتحامل» (*Pride and Prejudice*)، التي يجب على الجميع قراءتها ولو مرة واحدة على الأقل. في الحقيقة، إنني لا أتذكر أني شعرت بوجود اختلاف كبير بين الروايتين، إذ لم يكن لديّ أي حسّ نقدي في ذلك الوقت؛ أعتقد أن الأطفال الذين لديهم حسّ نقدي هم مروّعون وغير طبيعيين مثل الكلاب التي ترتدي المعاطف. ولسبب ما، استمتعت بروايةٍ عن فتاة مراهقة تحمل عنوان «أنا، ناتالي» (*I, Natalie*)، والتي لا أتذكر منها الآن إلا أنّ أحداثها تدور في مبنى سكني كئيب في بولندا، وقد احتوت على بعض التلميحات الجنسية، والتي كانت دائمًا موضع ترحيب.

كان هناك أيضا «صباح الخير، تريستيسي» *(Bonjour Tristesse)*، التي وجدتُها بسيطة ضحلة إلى حد ما؛ أظن أنني لم أستوعب أكثر من نصفها فقط، وهذا كان ينطبق على العديد من الكتب التي قرأتها في ذلك الحين.

شعرتُ بشعلةٍ تضيئ روحي، تمنحني إياها السيدة لوفورنو في هذه الرحلات التي كنت أخوض غمارها إلى رفوف قبوها، وكأنّ كل منّا كانت عاشقة للقراءة، وتعرف تمامًا أنّ الأخرى تشاركها العشق ذاته. لم تخطر على بالي غرابة هذا الأمر إلا عندما كبرت أكثر، حتى صرت شخصًا بالغًا، أقصد أن تسمح لي بزيارة قبو كتبها مع أنه لم تكن تربطني بها أية قرابة، في حين كانت أمًا لولدين، وكلاهما في عمري تقريبًا، يُمضيان وقتهما في الطابق العلوي بينما كنت أبحر في عوالم كتبها وأحتار من كثرة ما أرغب في قراءته. وبطريقة غير واضحة تمامًا، بدأتُ أعتقد حينها أنّ حمّى القراءة التي تسكن روحي هي ظاهرة أنثوية حصرًا، وربما بشكل ما، بدأتُ أعتقد أنها موضع شبهة وريبة، كما كان يعتقد الآخرون بكل وضوح.

في الواقع، لقد تعزّز هذا الإحساس بأن النساء يقرأن دائمًا، وحياتهن حافلة بالقراءة على الدوام، من خلال ما قرأتُه: جو مارش (Jo March) في عليّتها في «نساء صغيرات» *(Little Women)*، مع كتابٍ في يدها وصحن من التفاح أمامها؛ وبيتسي راي (Betsy Ray) في سلسلة الفتيات من قصص «بيتسي – تاسي» *(Betsy-Tacy)*، التي يكتفي أصدقاؤها بمتطلباتهم من القراءة لفصل الصيف، من خلال الاستماع إليها تخبرهن جميعًا عن حبيبها إيفانهو (Ivanhoe)؛ وكذلك من خلال النساء في رواية «ذهب مع الريح» *(Gone with the Wind)*، يقمن بأعمال الخياطة ويقرأن بصوت عالٍ، بينما يتعرض رجالهن في الخارج لإطلاق النار. هناك عدد قليل جدًا من الكتب التي يتم فيها تصوير الشخصيات الذكورية، والأولاد أقل من ذلك بكثير، كمدمنين قراءة. في الواقع، هناك عدد أقل بكثير من الكتب المخصصة للأولاد بشكل عام والتي تسرد قصة انتقال البطل من سنّ الشباب إلى سنّ الرشد، ويحكي معظمها عن قصص تدور حول أعمال لا تعرف الخجل: ركوب القوارب، وسفن القراصنة، وساحات القتال. وعلى النقيض من ذلك، فإن الصداقة والقراءة هما الموضوعان الرئيسان للكثير من الأدب المفضل للفتيات.

عندما كنت أصغر، كنت أتصور أن سبب ذلك هو أننا - نحن النساء- لم يكن لدينا الكثير لنفعله في العالم لدرجة أن القراءة عن العالم الحقيقي كانت هي الأمر الوحيد الذي يجعلنا نلامسه. في الواقع، هذا هو السبب في غرامي بالقراءة على هذا النحو؛ إذ عندما ألقي نظرة الآن إلى تلك الفترة من حياتي، أرى بوضوح أن جزءًا من استيائي من حياتي هو استياء من الدورين التقليديين المتاحين لي كفتاة في ذلك الوقت، والذين لم يرق لي أيّ منهما، سواء أن أكون راهبة أو ربة منزل.

ولكن قد لا تُجانب الصحة أيضًا، أنّ سيكولوجية المرأة تثير لديها اهتمامًا كبيرًا بتجربتها غير المباشرة للحياة. أتذكّر، بصفتي كاتبة عمودٍ صحفي، يوم طلب مني رئيس التحرير أن أكتب عمّا أتحدث عنه مع أصدقائي عبر الهاتف، والحقيقة أنه ربما كان بإمكاني الحصول على عمود من معظم مكالماتي الهاتفية، نتيجة تصميمي، كما كنّا جميعًا، على استكشاف حياتنا الخاصة وتحليلها وفهمها من خلال المحادثة. ربما فهم رئيس التحرير بشكل حدسي ما اعتقدتُه عندما اعتبرتُ الاهتمام الدائم الذي كان لدى الكثير من النساء في قراءة القصص الأدبية (وكتابتها أيضًا) أكبر. ربما إذا نظرنا إلى النساء ككل، نجد أنهنّ أكثر اهتمامًا في تحليل الأسس العاطفية لمشاكل الناس الآخرين، وتحليل علاقات الحياة وروابطها وعواطفها بشكل لافت للنظر. قال كافكا: «يجب أن يكون الكتاب بمثابة فأس يكسر البحر المتجمد بداخلنا». ربما -نحن النساء- أكثر استعدادًا لكسر هذا الجليد.

الصداقات الحميمة والقراءة هما ما يجعل ذلك ممكنًا في معظم الأحيان في حياة العديد منا، والعلاقة بينهما واضحة في مجموعات القراءة التي حماها تجذّرها في المجتمع من الزوال.تلك الاجتماعات التي كانت تحتسي القهوة في ثنايا مناقشاتها الأدبية، الموجودة في أمريكا منذ عقود، ولكنها مرّت بصحوة مفاجئة إلى حد ما، خلال الربع الأخير من القرن العشرين. من الصعب أن نعرف، إحصائيًا، من يشارك فيها وتحت أية ظروف، لأن هناك العديد من المجموعات في العديد من الأماكن، لكن يبدو أن أكبر عدد من مجموعات القراءة يتألف من النساء اللواتي يقرأن كتبًا رائعة، بعضها من الكتب نفسها التي وجدتها في قبو السيدة لوفورنو. خطرت على

بالي مجموعات القراءة تلك في إحدى الليالي في مأدبة عشاء عندما أصرّ أحد النقاد الأدبيين أنّ نشر الكتب اليوم «لا يتجاوز مستوى اهتمام ربات البيوت في الضواحي فحسب».

أخبرتني مجموعةٌ من ربات البيوت في الضواحي في أوهايو أنهن قرّرن تكريس السنة الخامسة من عمر مجموعتهن لقراءة أعمال إديث وارتون (Edith Wharton) وجين أوستن (Jane Austen)، وفرجينيا وولف (Virginia Woolf)؛ كما اختارت مجموعة أخرى، تعقد اجتماعاتها في منازل أعضائها في سانت ديفيد على الخط الرئيسي لفيلادلفيا، خلال سنواتها الأربع معًا، قراءة أعمال والاس ستغنر (Wallace Stegner)، وجين سمايلي (Jane Smiley)، ووليام ستايرون (William Styron)، من بين آخرين كثر، وتخصيص اجتماعين شهريين متتاليين لرواية تولستوي (Tolstoy) «آنا كارنينا» *(Anna Karenina)*. لقد استقبل جميع أعضاء النادي الفكرة المقبولة عمومًا «بأن الأمريكيين لم يعودوا يقرؤون، أو أنهم لا يقرؤون إلا الأعمال السخيفة» بالإنكار والسخرية، فهم يعرفون شخصيًا عشرات مجموعات القراءة؛ في المكتبة المحلية، وفي متجر الكتب المحلي، وفي العديد من كنائس المناطق. بدأت مجموعتهم ذاتها على أساسِ قراءةِ قائمةٍ من الكتب المقترحة من ابنة العضوة المؤسسة، التي أطلقت هي نفسها مجموعةَ قراءة في نيو هامبشاير، واضطرت نساء مجموعة القديس ديفيد استبعاد ضمّ أعضاء جدد، خشية أن تكبر مجموعتهن أكثر من اللازم بحيث يصبح من الصعب اجتماع الأعضاء لتبادل المعلومات الجديّة. كنّ يختتمن كل مناقشةٍ شهرية بقراءةٍ بصوت عالٍ للسيرة الذاتية المختصرة للمؤلف ومجموعة المراجعات النقدية التي تلقّاها الكتاب.

قالت إحدى السيدات: «من الطبيعي أن يقرأ الناس. بالنسبة لي أقرأ كل ليلة قبل أن أذهب إلى الفراش، مع أنني كنت أقوم بتربية تسعة أطفال. كنت بحاجة للهروب، لاستخدام مخيلتي، واستخدام ما تبقى من ذهني، وشكّلت القراءة متعتي الأكبر». وكما هي القراءة بالنسبة لي، وجدت تلك المرأة سبيلها للاتصال بالآخرين من خلال القراءة، كما الحال عند الكثيرين وخاصة النساء.

عندما نشأتُ في عالمٍ سحري من الكتب، بدأت أعتقد أن النساء يقرأن بطريقة مختلفة عن الرجال. تشير الإحصاءات، على الرغم من أنها ليست دقيقة تمامًا، إلى بعض هذه الاختلافات، حيث أظهر استطلاعٌ للرأي أجرته مؤسسة غالوب (Gallup) عام 1991 أن النساء أكثر عرضة من الرجال لأن يجدن في القراءة وقتًا للاسترخاء أكثر من مشاهدة التلفزيون، وأكثر غزارة في القراءة. وأفادت النساء اللواتي يحملن شهادة جامعية أنهن يقرأن ما متوسطه خمسة وعشرون كتابًا على مدار العام، بينما لم يقرأ نظراؤهن الذكور أكثر من خمسة عشر كتابًا فقط. يقول بعض أصحاب متاجر الكتب إن زبائنهم من النساء يقرأن الروايات أكثر من الرجال الذين غالبًا ما يختارون السير الذاتية والتاريخ. ربما تشعر النساء بحاجة إلى الهروب من حياتهن والاستغراق في حياة الآخرين أكثر من الرجال.

ولكن، يبدو لي أيضًا، من خلال الاستماع إلى أعضاء مختلف نوادي الكتب يتحدّثن عما فعلنه ولماذا، على غرار الكثير من النساء، أن النساء لا يعتبرن القراءة مجرّد نشاط انعزالي، بل فرصة للتواصل العاطفي، ليس فقط مع الشخصيات في الرواية ولكن مع الآخرين الذين يقرؤون أو قرأوا الرواية ذاتها بأنفسهم. إننا نعطي الكتب المحبّبة إلى الأصدقاء، ونناقشها على الهاتف. ربما أدى تصادم ثقافتين أنثويتين إلى وفرة مفاجئة في مجموعات القراءة في السنوات الأخيرة، إذ أصرّت الحركة النسائية على ضرورة القيام بشيء ما، وأن تأخذ النساء دورهن في المجتمع، وأن يستخدمن عقولهن وقلوبهن، بينما الكثيرات منهن محاطاتٍ بالأمور الحياتية اليومية؛ الحوض المليء بالأطباق، وتَشاركُ السيارة مع الأصدقاء، والفوضى العارمة التي لا نهاية لها التي يسبّبها الأطفال. تُوفر مجموعة القراءة إحدى الطرق اليسيرة لتتعايش فيها ذواتنا مع الأمرين: فهي من جهة أولى تزوّدنا بمناسبةٍ مدروسة بعناية للممارسة الفكرية، ومن الجهة الأخرى تجعلنا نرتقي من خلال الرفقة الأنثوية.

Telegram:@mbooks90

ويستمر الكتاب في تقديم ما اعتاد أن يمنحنا إياه على الدوام: «الملاذ الآمن». ما أزال أتذكر السنة الأولى بعد ولادة طفلي الثاني، وهذا جلّ ما يمكنني أن أتذكره من تلك الفترة على الإطلاق؛ كانت سنة مليئة بالفوضى، بأكواب الحليب المسكوبة، وألعاب الأطفال المبعثرة على الأرض، وقضاء ساعات يومي الممتدة من شروق

الشمس إلى غروبها تائهة في حمّى الانشغال بشكل رهيب؛ ولكنها، في نهاية اليوم، بدت وكأني لم أنجز فيها شيئًا على الإطلاق. الكتب هي ما أنقذ سلامتي العقلية في ذلك الوقت، فقد كانت ملاذي الذي أهرب إليه، حتى لو لم يتجاوز ذلك خمس عشرة دقيقة فقط قبل أن أغفو حتمًا في السرير، فأحلّق في أنحاء الغرف الإنجليزية المظلمة الهادئة لأحدث رواية لأنيتا بروكنر (Anita Brookner)، وفي الحبكات المعقّدة في آخر رواية مشوّقة لإلمور ليونارد (Elmore Leonard)، وفي أحد كتبي المفضلة القديمة مثل «الإفطار في تيفانيز» *(Breakfast at Tiffany's)*، و«وداعًا» *(Goodbye)*، و«كولومبوس» *(Columbus)*، و«صديقنا المشترك» *(Our Mutual Friend)*، و«مرتفعات ويذرينغ» *(Wuthering Heights)*. كانت التداعيات الرومانسية المشوشة لهيثكليف (Heathcliff) تشكل مهربًا آسرًا من نقيضها الماثل أمامي من حفاضات الأطفال القذرة، وهذا أمر مؤكد. وكما كان الأمر بالنسبة لي عندما كنت صغيرةً ومحاطة بأشقائي، ما يزال الحال اليوم وأنا محاطة بأطفالي، ما أزال أجد في القراءة مهربًا من المنزل المزدحم، إلى غرفةٍ خاصة بي في عالم الخيال.

«تُغدق علينا القراءة بمتعة ذات صبغة متوحشة، كمتعة الأبقار إذ تنتشي عندما ترعى».

جي. ك. تشيسترتون

(G. K. CHESTERTON)

الكتاب الأول الذي استحوذ عليّ تمامًا والذي قرأته مرارًا وتكرارًا، كان كتابًا لخّص كلاً من هذا الوقوع في الغرام المطلق في كتابٍ يمثل السمة المميزة للطريقة التي تقرأ بها النساء عادة، وذلك النوع من الغرور الفكري الذي يميز أغلب مناقشات الكتب بين أولئك الأشخاص الذين يُعتبرون خبراء في هذا المجال. لدى كل قارئ، على ما أظن، كتاب من هذا النوع في مكان ما في ماضيه أو ماضيها، وهو كتاب يبدو لنا عند قراءته، أنه يحمل في طياته كل أسرار الحياة والحب، وكل أسرار الكون. هناك أشياء أخرى في الحياة تجعلك تشعر الشعور ذاته: الوجبة المثالية التي لا تغادر

سراديب ذاكرتك؛ وقضاء فترة ما بعد الظهر على شاطئ البحر مع نسيم عذب وقارب خلّاب في مشهد يبقى في ذاكرتك كحجر كريم يعصى بريقه على النسيان؛ ولحظة حب حميمة لا تفارق الذاكرة. لكن، لا يمكن استحضار أيٍّ من هذه الذكريات الجميلة على الشكل النابض بالحياة الذي كانت عليه تمامًا. بينما الكتاب - الكتاب الذي فرض على ذاكرتك، لسبب أو لآخر، أن يبقى مستعصيًا على النسيان- يمكن إعادة قراءته، دون تغيير. نحن فقط من يتغير، وهذا ما يلقي ضوءًا جديدًا على الكتاب عند قراءته من جديد؛ هذا ما يصنع الفرق بالكامل.

بالنسبة لي، كان هذا الكتاب رواية كتبت في أوائل القرن العشرين؛ أقول رواية، لكنه في واقع الأمر ثلاث روايات، أو ربما تسع روايات، اعتمادًا على طريقتك في العد. لكن عندما قرأته، كان يطلق عليه اسم واحد، ويعرفه معظم القراء على أنه كتاب واحد: «ملحمة فورسايت» *(The Forsyte Saga)* التي حاز مؤلفها، جون جالسورثي (John Galsworthy)، على جائزة نوبل للآداب عام 1932 بسبب القوة التي احتوتها، ورغم أن قوائم الكتب التي يُقترح قراءتها على طلاب الجامعة تزخر بمؤلفات فيتزجيرالد (Fitzgerald) وهيمنجواي (Hemingway)، فإنه نادرًا ما يكون هناك مجرد ذِكر لجالسورثي، وهو رجل من هذا القرن ما تزال أعماله تُشعرك بلا شك كما لو أنها مكتوبة في القرن الماضي. وبينما حقق الكتاب نجاحًا باهرًا في إنجلترا في أعوام ما بين الحربين العالميتين، وبرز إلى السطح من جديد عندما بثّت شبكات التلفزة العامة في أمريكا مسلسلاً دراميًا مُقتَبسًا منه، إلا أنه لم يظهر أبدًا، على حدّ علمي، في أحد قوائم أفضل الكتب التي تحظى بشعبية على الإطلاق.

ومع ذلك، فقد اعتقدت لسنوات عديدة أنه أفضل كتاب خطّته أنامل كاتب على الإطلاق، دون أي سبب سوى أنني كنت أؤمن به تمامًا، بكل ما يصوره من العلاقات الأسرية الملتوية، والأعراف الفيكتورية الخانقة، في شخصياته ولا سيما إرين (Irene)، المرأة الجميلة والحساسة المتزوجة من سواميس فورسايت (Soames Forsyte) ذو المشاعر الباردة، والذي يصعب أن تحبه. إنه أحد تلك الكتب التي ترغمك على أن تتوقف عندها، وتستحوذ عليك لتقرأها، ثم تعاني من خيبة أمل ساحقة إذا تبين أنها لا تستحق العناء. بالنسبة لي كان كتاب «ملحمة فورسايت»

يستحق كل ثانية قضيتها في قراءته، وفي كل مرة أصل فيها إلى الصفحة 700، يراودني رعب شديد من فكرة أنه قارَبَ على نهايته، وتفاؤل عظيم من فكرة أنني سأبدأ في معاودة قراءته من جديد. حتى اليوم، يستحيل عليَ أن أقرأ الجملة الأخيرة دون أن أذرف الدموع، مدركة في ثنايا الصرخة النابعة من أعماق قلب سواميس، الرغبة الإنسانية العالمية العارمة الكامنة فينا جميعًا: «قد يرغب المرء ويتمنى دون تحقيق مراده أبدًا، دون الحصول على الجمال والمحبة في هذا العالم!» لينهي روايته بإشارة تعجب... كم هو تصرف جسور!

لأغراض النقاش الفكري، أنا مستعدة هنا لإبداء رأيٍ نقدي ضد عظمة «ملحمة فورسايت»؛ ما زلت بالطبع أجده كتابًا يستحق القراءة، لكنني لم أعد أعتبره تحفة أدبية. عند إعادة قراءة الكتاب، يشعر المرء بأنه أقل متعة مما كان عليه من قبل، وأنه حبكةٌ روائية أكثر من كونه حياة حقيقية، وإيرين هي فكرة مجردة عن المرأة أكثر من كونها امرأة حقيقة من لحم ودم. ربما قرأت الكثير من الكتب منذ أن قرأته لأول مرة، في سن الثالثة عشرة - كان الكتاب في قبو السيدة لوفورنو، مغلّفًا بقطعة قماش زرقاء- لكن يبدو أن العلاقة الثلاثية بين سواميس وإيرين من جهة، وإيرين وحبيبها المهندس المعماري فيليب بوسيني (Philip Bosinney) من جهة أخرى، تدين لآنا كارنينا أكثر مما ينبغي، ولا تحوي من الشغف العاطفي ما يكفي ليجعلها واقعية. لكن قولي هذا أشبه بانتقاد المرء لوجه حبيبه، قد يكون الأنف كبيرًا، لكن الشكل العام جميل! ما تزال «ملحمة فورسايت» تسلب لبّي، فما زلت أجدها مليئة بالعواطف المؤرّقة الحقيقية للزواج غير المتكافئ، والشغف المحبَط، والتقدم بالعمر، والندم، والحب الأبوي الذي يشبه الوردة بجمالها وشوكها. لديّ نسخة قديمة جدًا منها، صفحاتها غير مثبتة بغلافها الورقي، صدرت إحياءً لذكرى المسلسل التلفزيوني المقتبَس منها، ولديّ نسخة أخرى في حالة ممتازة ذات غلاف سميك لا يعيبها إلا بعض الضرر الذي أصاب غلافها المكسو بالغبار، من منشورات تشارلز سكريبنرز صانز (Charles Scribner's Sons). وعلى العكس من معظم الكتب التي أحبها، لا أقترح على الآخرين قراءتها، حتى أولئك القراء الذين أعرفهم حقّ المعرفة، إذ سيكون الأمر صعبًا بالنسبة لي، إن وجدها ابني الأكبر على سبيل المثال، عِلمًا أنه

عاشق للقراءة، مملة وسخيفة. أما بالنسبة للمعارف الذين لا تربطني بهم علاقة وثيقة، فلا يهمني إذا ما قرأوا هذه الرواية أم لا، إذ ستبقى كتابي المفضل.

لكنني لا أستطيع قراءتها دون أن أتذكر ردة الفعل المكونة من كلمة واحدة لرئيس قسم اللغة الإنجليزية في كليّتي، عندما ذكرتُها بخجل أثناء مناقشة «الكتب العظيمة»، وهما كلمتان كان يقولهما دائمًا بطريقة تشدّد على كل حرف من حروفهما. كان يتحدث عن رواية «تريسترام شاندي» *(Tristram Shandy)* وكان ينبغي ألا أذكر اسم روايتي في ذلك الوقت. مع أني أمتلك ما يناهز 5000 كتابًا اليوم، إلا أن «تريسترام شاندي» ليست من بينها، ولا أعتقد أنني خسرت شيئًا مهمًا بعدم اقتنائها.

«جالسورثي!» قالها بمزيج من الاحتقار وعدم القدرة على تصديق أنني ذكرتها، كما لو أنه فوجئ بوجود بذرة في فاكهة اعتقدها بلا بذور، وهكذا مات الحلم.

(ودفاعًا عن الأستاذ، لم يكن وحيدًا في موقفه هذا؛ فقد كتب في. إس. بريخت (V. S. Pritchett) تقييمًا محبطًا جدًا عن «ملحمة فورسايت»، واصفًا إياها بأنها «تجربة رجل نبيل تُعوزه الخبرة على هامش الحياة الاجتماعية»).

هكذا علِمتُ أنني من المفترض أن أتخطى رواية مثل «ملحمة فورسايت» لأثبت أنني قد نضجت، تمامًا كما يتخطّى الطفل عادة مصّ الإبهام، وأنه من غير المرجّح أن تجد هذه الرواية مكانًا لها في قائمة «الكتب العظيمة» لأيّ قارئ مثقّف. لقد أصبحت مسألة تحديد الكتب التي ستظهر على قائمة كهذه موضوع جدالات لا نهاية لها، بل أصبحت مشكلة مرهقة في كثير من الأحيان حول «معيار الاختيار» (ومرة أخرى بالتشديد على كل حرف) أُضرمت نار المناقشة، مما تسبب في قدر كبير من الحرارة والقليل من الضوء، خلال الربع الأخير من القرن العشرين، حيث انتقل كل من النساء والأشخاص ذوي البشرة الملونة من الظل، من مكانٍ يقع على هامش الحياة الفكرية؛ إلى النور، إلى مكان يقع، نوعًا ما، بين أقرانهم القوقازيين الذكور. شرَع الطلاب بقراءة رالف إليسون (Ralph Ellison) وأنايز نين (Anaïs Nin) و كوليت (Colette) وتوني موريسون (Toni Morrison)، ونتيجة لذلك، احتدمت نقاشات لا نهاية لها، وظهرت أبحاث، وكتب، حول ما إذا كان يتم استبدال «معيار الاختيار»

بتشكيلة متعددة اللغات من الكتب الأقلّ جودة، وذلك فقط لإرضاء توجّهات سياسية جديدة. في جامعات «آيفي ليج» (Ivy League) الراقية المفعمة بالحياة من الناحية الفكرية، مثل جامعة كولومبيا مثلاً، كان من الممكن أن تنشب معركة ضارية في نزهة داخل الحرم الجامعي لمجرّد اقتراح ما إذا كان يجب ضمّ اسم الشاعر «شابو» (Sappho) إلى أسماء أفلاطون ولوك ليُنقَش على الإفريز الحجري «لمكتبة باتلر» (Butler Library) في الجامعة. لقد بلغ استبداد المثقفين ذروته، إذ صار هناك طريقة صحيحة لاختيار الكتب التي يتوجب قراءتها، وطريقة خاطئة، وكان يُنظر إلى الطريقة الخاطئة على أنها أسوأ من خاطئة. لقد كانت تُعتبر «قراءة العامّة»، وهو مصطلح يستخدم للإشارة إلى أولئك الذين يقدّرون الأعمال الممتعة، والجذابة، والمؤثرة، والمسيطرة على المشاعر بالإضافة إلى الأعمال الخالدة.

لقد تسبّب هذا الجدال بضياع أي قارئ ذي فطرة سليمة، والذي أنتج، من بين أشياء أخرى، نثرًا نقديًا غزيرًا إلى درجة إدخال أي شخص يحب ممارسة القراءة في دوّامة من التشويش، والإحباط. إضافة إلى ذلك، فإن معظم هؤلاء القرّاء الذين يُعرفون باسم «عامّة القراء» يعترفون بسهولة بأن الإلياذة وضعت معيارًا لا يمكن أن تدانيه رواية «ما الذي يجعل سامي يركض؟» *(What Makes Sammy? Run)* أو رواية «الهجرة» *(Exodus)*. لكن أي قارئ ذي فطرة سليمة سيفهم أيضًا بشكل حدسي، على الفور، الخطأ الذي تقع فيه مثل هذه المقارنات، وأنّ استخدامات القراءة واسعة ومتنوعة، وأن بعض هذه الاستخدامات لم يتطرق إليها هوميروس. مع ذلك، كان مروّجو «معيار الاختيار» وحُماته، المترنحين حقًا تحت وطأة التحويل الديمقراطي للأدب والإدماج المفاجئ لكل هؤلاء النساء والأميركيين من أصول أفريقية، يرغبون في التعبير عن هذا الجدال من خلال التخلي عن أي نوع محدد من أنواع التذوق الأدبي، سواء في القراءة أو النشر.

بصفتي قارئة مولعة بأعمال ديكينز (Dickens) لدرجة أني أعدت قراءة «المنزل الكئيب» *(Bleak House)* أكثر مما قرأت أيًا من دوستويفسكي (Dostoyevsky) أو ستندال (Stendhal)، شعرتُ بالحيرة والذهول خلال دراستي الجامعية لاكتشافي وجود نوع من السحابة السرية التي تخيّم على النقاش الجاد لأعمال

ديكنز. استغرق الأمر مني سنوات، أي حتى وصولي إلى سنة التخرج، لأدرك تمامًا أن النجاح الكبير الذي حققه الرجل العظيم أثار الريبة بشأنه نوعًا ما في عقول بعض النقاد الأدبيين، الذين ما يزالون، حتى بعد قرن من الزمان يتمسّكون بالمفهوم القائل أن نجاح الكتاب على صعيد المبيعات يعني الانغماس في الوضاعة، وأن الموهبة تتناسب عكسًا مع الانتشار بين القرّاء.

إنّ إلقاء نظرة على قوائم الكتب الأكثر مبيعًا في القرن العشرين يعزّز هذا التحيّز إلى درجة ما؛ هناك الكثير من أعمال ميكي سبيلان (Mickey Spillane) وهارولد روبنز (Harold Robbins)، وتلك الروايات التاريخية – الكأس الفضية (*The Silver Chalice*)، و الرداء (*The Robe*)، والوردة السوداء (*The Black Rose*) - التي كانت تتربع على أرفف الكتب في منازل الطبقة الوسطى. ولكن هناك أيضًا عاشق السيدة شاتيرلي (*Lady Chatterley's Lover*)، وغاتسبي العظيم (*The Great Gatsby*)، وكلّ من مزرعة الحيوانات (*Animal Farm*) و1984، ولوليتا (*Lolita*)، وأرخبيل غولاغ (*The Gulag Archipelago*)، والتي لا يمكن لأحد أن يتجرأ بوصف أيّ منها بأنها مجرّد كتب لتمضية الوقت.

إذن، ما معنى أن تُحقق رواية «منزل بيتون» (*Peyton Place*) التي ألفتها غريس ميتاليوس (Grace Metalious) نجاحًا تجاريًا أكبر من «الملاذ» (*Sanctuary*) التي ألّفها وليام فوكنر (William Faulkner)؟ هذا يعني أن للقراءة العديد من الوظائف كما حال الجسم البشري، وأنّ بعضها لا يرتبط بالجانب الفكري، فمجرّد الترفيه هو أحد تلك الوظائف، وكذلك الابتعاد الممتع عن الحاضر؛ كما أن هناك وظيفة أكثر أهمية، ليست فكرية ولكنها جادّة على النحو ذاته. كتب رولد دال (Roald Dahl) في رواية ماتيلدا (Matilda) عن بطلة الرواية الشغوفة بالقراءة «لقد تعلمت شيئًا مريحًا، أننا لسنا وحدنا». هل من الممكن أن يعتبر المرء استخدام القرّاء للكلمات والقصص على هذا النحو بغاية الارتباط بالآخرين عن طريق تخفيف حدّة العزلة الإنسانية وتوسيع المعرفة البشرية، أمرًا لا يستحق المحاولة، أو غير ممكن، أو غير هامّ؟

غالبًا ما تتجاهل النقاشات التي تدور حول نوع القراءة التي تشكل المناهج الجامعية الأساسية هذه الاستخدامات البديلة للقراءة، وهي استخدامات بعيدة كل البعد عن التعليم، إذ لا تهتم أغلب تلك النقاشات إلا بالجانب الفكري متجاهلة الجانب العاطفي. ويتجلّى جزء مهمّ من الأعجوبة الرائعة للقراءة في قدرتها على جعل البشر يشعرون بأنهم أكثر ارتباطًا ببعضهم البعض، وهو أمر رائع، وإن لم يكن من وجهة نظرٍ تربوية، فعلى الأقل من وجهة نظر نفسية اجتماعية. عندما قام «مركز الكتب» بمكتبة الكونغرس بتكليف اثنين من المراسلين بالسفر في أنحاء البلاد وطرح سؤالاً على شريحة واسعة من الأمريكيين عن الكتب التي أحدثت فرقًا كبيرًا في حياتهم، اقتصرت الكتب التعليمية على جزء فقط من الإجابات التي حصلا عليها. تحدث أحد الرجال عن الكتاب الذي ساعده على التغلب على إدمان الكحول، وذكر آخرٌ كتابًا ساعده على تخطّي أزمة وفاة والدته. وشارك عددٌ ليس بالقليل ما قالته إحدى النساء عن رواية «القلب صياد وحيد» *(The Heart Is a Lonely Hunter)*: «لقد قرأته عندما كان عمري أربعة عشر عامًا، كنت أشعر أنّه لا يوجد حولي أي شخص يفهم مشاعري، وإذ بي أجد هذا الكتاب عن فتاة في الرابعة عشرة من عمرها تعاني من المشاعر ذاتها التي كانت تؤرّقني».

تُعدّ قدرة الكتاب على التخفيف من حدّة العزلة أمرًا هامًا، ليس فقط على صعيد النمو الشخصي، ولكن على صعيد النمو الثقافي والاجتماعي أيضًا. قبل مجيء التليفزيون، كانت الكتب هي الأداة الأساسية لاكتشاف أولئك الذين يبعدون عنّا مسافات شاسعة بكل ما لديهم سواء من أمور غامضة علينا أو أوجه من التشابه الإنساني معنا. بحلول الذكرى الخمسين لوفاة مؤلف رواية «يوميات آن فرانك» *(The Diary of Anne Frank)* في معسكرِ اعتقالِ بيرغن بيلسن (Bergen-Belsen)، حققت روايته تلك مبيعات وصلت إلى عشرين مليون نسخة في خمس وخمسين لغة. ولكن، يشكّك الكثيرون في صلاحية الرواية لتكون شهادة صادقة على المحرقة، أو لتكون عملاً فنيًا راقيًا، إلا أنه مما لا شك فيه أنها كشفت الستار عن معاناة كانت ستبقى طيّ الكتمان لوقت أطول لولاها. إذ بالنسبة لعدة أجيال من الأطفال الأمريكيين الذين لم يسمعوا مطلقًا بمعسكرات الموت وربما

لم يلتقوا يهوديًا أبدًا، مثّلت تجارب آن التي عانتها في فترة المراهقة، والتفاصيل الفظيعة لما مرّت به في السجن، والتي تشكّل مأساة يمكن أن تحدث في أي مكان في العالم، نافذةً جعلت القرّاء يعاينون المعاناة من التعصّب. لدينا أيضًا «شارة الشجاعة الحمراء» *(The Red Badge of Courage)*، و«كل شيء هادئ على الجبهة الغربية» *(All Quiet on the Western Front)*، و«العراة والموتى» *(The Naked and the Dead)*؛ كلها روايات حربية عظيمة ساعدت في خلق وطنيين من جهة أولى، ودعاة سلام مناهضين للحرب من جهة أخرى، بين أولئك الذين لم يسبق لهم أن رأوا قتالا، ولن يروه أبدًا. قبل ظهور النسخة الحالية من رواية «الحارس في حقل الشوفان» *(Catcher in the Rye)* ذات الغلاف الأحمر الذي يعتصر الفؤاد، كانت قد ظهرت لأول مرة في نسختها ذات الغلاف الورقي الغريب الذي يحمل رسمًا تمثيليًا صادمًا يوحي بالكيمياء النفسية التي تضجّ بها الرواية، وقد كُتب على الغلاف «هذا الكتاب غير العادي»، كما لو أنه لم تتوفر صفة أكثر تحديدًا، «قد يصدمك، أو يجعلك تضحك، أو يفطر فؤادك، لكن يستحيل أن تنساه أبدًا». وبالطبع، هكذا تمّ تلقّي رواية سالينجر (Salinger) منذ نشرها في عام 1951، ليس من حيث مزاياها الأدبية، ولكن ككتاب مكّن أجيالاً من المراهقين من الإحساس بإنسانيتهم على نحوٍ أفضل، وساعدهم في الابتعاد نوعًا ما عن شعورهم بأنهم زوّار غرباء في هذا العالم قادمين من كوكب آخر. نادرًا ما يقرأها أحد تجاوز الحادي والعشرين من العمر، وهو أمر غير ذي صلة، إذ ما يعنينا هنا أنها رواية مرغوب بها من قبل القراء الذين تقلّ أعمارهم عن 18عامًا، إذ يجدون فيها دليلاً إيجابيًا على أن شعورهم بأن لا أحد يفهمهم هو شعور عامّ، بل حالة عالمية.

تُعد رواية «الحارس في حقل الشوفان» مثالاً على إنجازات القراءة، ليس فقط بسبب تردّد صداها مع العديد من القراء، بل أيضًا لأنها أثارت غضب الكثيرين. عندما تُصدر رابطة المكتبات الأمريكية تقريرها السنوي عن حظر الكتب من قبل المكتبات المدرسية، يكون حافلاً بالعناوين المتعلقة بحياة المثليين جنسيًا، والتي تدور حول الحياة الجنسية، والسحر والأمور الخفية، لكن رواية سالينجر هي الحاضر الدائم في هذه القائمة، إذ يتم رفضها وإزالتها من أرفف المكتبات في كل أنحاء البلاد تقريبًا

عامًا بعد آخر، على الرغم من أنها ما تزال إحدى الكتب الأكثر ذكرًا في قوائم القراءة في المدارس الثانوية. في كثير من الأحيان، يشكو الآباء والأمهات الذين عارضوا تلك الرواية من أنها تُظهر تجاهلاً كاملاً لسلطة البالغين، وهي كذلك بالفعل، وهذا هو السبب في أنّها تتصدّر دومًا قائمة الكتب المفضلة لدى المراهقين الذين يمرّون بحاجةٍ عميقة وحقيقية، بحكم المرحلة العمرية التي يمرّون بها، إلى التخلص من سلطة الوالدين. إنها تتحدى النظام المتجذّر، كما تفعل العديد من الكتب العظيمة - وكذلك العديد من الكتب المُدرجة في قائمة الكتب المحظورة.

كان أول احتكاك حقيقي لي مع الجدل الذي يمكن أن يحيط بكتاب ما كافٍ ليعلّمني كل هذا بشكل مقنع وعلى نطاق دقيق وحميم للغاية. لقد فتح عينيّ على الاختلاف بين الناس في التذوّق الفردي، وتمرّد المراهقين، وتلك الهوّة الهائلة التي تنشأ أحيانًا بين جيل وآخر. كانت أمي اللطيفة تجلس في غرفة المعيشة وفي يدها كتاب تقرأه، وفجأة رمَته، بالمعنى الحرفي للكلمة، من فوق طاولة القهوة على الأرض، حيث لعبت الصدفة دورها -بل الحظ الحسن- في أن يستقرّ قريبًا من قدميّ. «إنه كتاب قذر!» هكذا قالت والدتي مغادرة الغرفة والكتاب، مما دفعني لاكتشاف أن «شكوى بورتنوي» *(Portnoy's Complaint)* كانت رواية مسليّة ومثيرة للتفكير بقدر أية رواية قرأتها من قبل. عليّ أن أتساءل الآن، مع وجود مراهقين في منزلي، عما كان يدور في ذهن والدتي ذلك اليوم. ألم تعرف أن الكتاب كان ينضح بصدق عميق على مستوى ما، وأن محتواه الجنسي كان مجرد لباس خارجي لتغطية مفاهيمه الهامة حول طبيعة الذكورة؟ والأهم من كل ذلك، ألم تعلم أنني سألتقطه وأقرأه في اللحظة التي غادرت فيها، كوني تلقيت إشارة انزعاجها وكأنها نداء يصرخ معلنًا عن فاكهة محرمة؟

من الصعب ألا تفكر في ذلك النداء الصارخ، وفي مفهوم الفاكهة المحرمة، عند النظر إلى قائمة الكتب المحظورة في أمريكا. من الصعب ألا نستنتج أيضًا، عند النظر إلى القائمة، أنّ الكتب التي تهيمن عليها تنتمي إلى نوعين: كتبٌ ممتازة بلا أدنى شك، وكتبٌ تتمتع بفضيلةِ طرح نوع ما من الحقيقة. يوثّق دليل موارد الكتب المحظورة لعام 1997 الجهود المبذولة لحظر أعمال سنكلير لويس (Sinclair

Lewis)، ورواية «موبي ديك» *(Moby Dick)* (لأنها «تتعارض مع قيم المجتمع» في إحدى بلدات تكساس)، ورواية «فئران ورجال» *(Of Mice and Men)*، وأعمال تشوسر (Chaucer)، كما يحتوي على ثلاث صفحات تفضّل الجهود لقمع روايات الفتيان التي كتبتها جودي بلوم (Judy Blume)، التي تُباع منها ملايين النسخ للمراهقين الذين لامسوا مشاكلهم وألمهم في صفحاتها. كما تعرّضت روايتها «إلى الأبد» *(Forever)*، التي تدور أحداثها حول العلاقات الجنسية بين المراهقين، إلى هجوم حادّ في مدينة سكرانتون (Scranton) لأنها تحتوي على «كلمات نابية وتحدثت عن الاستمناء، وتحديد النسل، وعصيان الآباء والأمهات» وفي ولاية ميسوري لأنها تشجع على «خنق الإنسانية في الحياة الأمريكية»، كما أنها حُذفت من قسم أدب الفتيان في نبراسكا لأنها «إباحية ولا تروّج لقدسيّة... الحياة الأسرية».

كلمة «إباحية» تلك مثيرة للاهتمام، والتي، إلى جانب ما تحويه من صفة «الفاحشة»، تكمن في صميم العديد من القرارات القانونية حول المواد المطبوعة. نجد الحوار الأكثر إمتاعًا والأغنى من حيث المضمون في هذا المجال هو ما دار بين مارغريت أندرسونَ (Margaret Anderson)، مالكة مكتبة نيويورك التي حاولت نشر «يوليسيس» *(Ulysses)* في الولايات المتحدة، وجون كوين (John Quinn)، المحامي الذي مثّلها عندما تمت محاكمتها بسبب قيامها بذلك. في نهاية الإجراءات التي خسرها أبطال حرية التعبير، حذّر كوين موكلته قائلاً «والآن، أستحلفك بالله، لا تنشري أي أدب فاحش بعد الآن!».

قالت أندرسون: «وكيف أعرف ما إذا كان فاحشًا؟».

أجاب المحامي: «بالتأكيد لا أعرف، لكن إياكِ أن تفعلي ذلك».

كرّرتْ ذلك على مسامع الصف الثامن في المدرسة الابتدائية التي يرتادها أطفالي الثلاثة، ليس بعيدًا عن المتجر، حيث باعت مارجريت أندرسون الجريئة تحفة جيمس جويس (James Joyce). كانت أمينة المكتبة هناك تعرف الكثير عن الكتب المخصّصة للأطفال مثل العديد من أفضل المحررين في هذا المجال، وقد تعاملت مع أسبوع الكتب المحظورة من خلال تقديم درس حول حظر الكتب. درس

الطلاب الأكبر سنًا التعديل الأول في الدستور؛ لقد كانوا على نحوٍ لافت للنظر مع سياسة عدم التدخل بشأن الرقابة، وبدا أنهم كانوا مجمعين أنه يجب منح الحرية للجميع في إمكانية قراءة أي شيء، وقد كان إجماعهم هذا مُبهجًا، ولكن كان هناك اتفاق عامّ على اعتبار أيّ كتاب يحتوي غلافُه على صورة عارية لرجل، غير مناسب أبدًا لطفل في السادسة من عمره، ويمكن أن يُصنّف على أنه فاحش. لذلك، أبرزتْ لهم كتاب موريس سيندك (Maurice Sendak) الكلاسيكي المصوَّر «في المطبخ الليلي» *(In the Night Kitchen)*، والذي يصوّر صبيًا صغيرًا يُدعى ميكي وهو يطفو عاريًا، وعضوه الذكري واضح، على خلفيّة من أكياس الطحين وزجاجات الحليب الضخمة. تفتم أطفال الصف الثامن: إذ عرفوا أنني قصدت من إظهار الكتاب أن أقول لهم: «وماذا بشأن هذا الكتاب!» لكن لم يكن من السهل على الأشخاص الآخرين تقبّل العري في صورة ميكي على أنه أمرٌ صحيح تمامًا؛ ففي إحدى مدارس ولاية ميسوري، تمّ رسم سروال قصير على صورة الشخصية، كما تم نقل الكتاب من الرفوف المنخفضة إلى العليا في مكتبات أخرى، كي لا يتمكن من الوصول إليه إلا الأطفال الأطول والأكبر سنًا فقط.

كَوني فتاة كاثوليكية نشأت في الستينيات، أثارت مسألة الكتب المحظورة اهتمامي دائمًا. بقيت الكنيسة تحتفظ بدليل الكتب المحرمة (Index Librorum Prohibitorum) إلى أن سما المَجمع الفاتيكاني الثاني بالضمير الفردي إلى مستوى أكثر أهمية في مسألة الإيمان. أُدرج اسم بلزاك (Balzac) على القائمة؛ وكذلك دوما (Dumas)، ورواية «باميلا» *(Pamela)* لريتشاردسون (Richardson). يصف عالم النفس يوجين كينيدي (Eugene Kennedy)، فيما كتب عن الثقافة الكاثوليكية، الرواية «المقبولة» من قبل الكنيسة الكاثوليكية بأنها «عمل يقوم على التقوى عمومًا، يدعم ويشجع الفُضل والممارسات الكاثوليكية، ويبرر ضرورة وجود المؤسسة الكنسية وسيطرتها على حياة أتباعها. وفي مثل هذه الأعمال، تتم مكافأة الصالحين، وينال الآثمون شديد العقاب». ما أزال أذكر في منزلي الكاثوليكي، وفي منازل أقاربي أيضًا وجود أعمال الأسقف فولتون جيه. شين (Bishop Fulton J. Sheen)، الذي كان برنامجه الإذاعي يحظى بشعبية كبيرة، أو «يوم وفاة

المسيح» *(The Day Christ Died)* بقلم جيم بيشوب (Jim Bishop)، وهو سرد دراميّ للطريق الذي سار فيه السيد المسيح إلى جلجثة (Calvary). (بالنسبة للجمهور الأكثر علمانية، كان هناك أيضًا «يوم قُتل لينكولن» *(The Day Lincoln Was Shot)* من قبل المؤلف نفسه).

كانت هذه الكتب متربّعة على رفوف العديد من منازلنا عندما كنت أشبّ عن الطوق. وعلى النقيض من ذلك، ولأنه كان زمنًا أكثر بساطة يصنف الأمور على أنها إما بيضاء أو سوداء، عندما لم تكن الكتب توصَف بأنها غير مرغوب فيها أو أنها مثيرة للغرائز، بل توصف فقط بكلمة قذرة، كانت تلك الكتب القذرة موجودة في كل بيت تقريبًا تحت فراش سرير آبائنا. عندما كنا نريد قراءتها، كان علينا أن نتأكد من أننا وحدنا في المنزل وأن باب غرفة النوم مقفلاً في ذلك الوقت، مثلما كان يفعل آباؤنا عندما كانوا يمارسون فعلاً الأعمال الموضحة في تلك الكتب، والتي كانت لا تُعتبر روايات بقدر ما يُنظر إليها على أنها أدلة للزواج. (في حالة والديّ، كانت هناك نسخة من رواية «مدار السرطان» *(Tropic of Cancer)*، الذي أتذكره اليوم بفخر، كونه الدليل الوحيد الذي رأيته على الإطلاق في أنهما كانا يتمتعان بفكر تقدمي في مسائل الذائقة الأدبية).

شكّلت هذه الكتب سبيلي إلى تعلّم تقنيات الجنس، ولكن بالطبع لم تكن تلك التقنيات هدفي المطلوب على الإطلاق. تعرّفت على الجنس، من بين أشياء أخرى، من فتاة كاثوليكية أخرى، ماري مكارثي (Mary McCarthy)، وروايتها واسعة الانتشار والمثيرة للجدل حول زميلاتها في كليّة فسار بعنوان «المجموعة» *(The Group)*. لديّ نسخة أصلية منها ذات غلاف ورقي، نُشرت في عام 1964، يصوّر غلافها عدد بسيط من أزهار الأقحوان، وما يزال الكتاب مفتوحًا على الأقسام التي تفقد فيها دوروثي المحافظة عذريتها، ثم تذهب إلى عيادة لشراء وسيلة للتحكم بالنسل. وعلى الرغم من الثورة الجنسية التي حدثت ومرور عدة عقود على قراءتي للرواية، ما تزال ذاكرتي تحتفظ بكلّ من وصفِ هزة الجماع الأنثوية، والإحراج الشديد الذي يمكن أن تثيره زيارة العيادة النسائية بالنسبة لامرأة دخلت طور النشاط الجنسي حديثًا. لا أعرف كيف تعلمت الشابات الأخريات توصيف إحساس

النشوة الجنسية، أو كيف يمكن أن تكون الزيارة الأولى للطبيب النسائي أمرًا محرجًا، لكن ما أعلمه أنني تعلمت ذلك من ماري مكارثي. وعندما أفكر في الأمر، أجد أنها كانت أول من عرّفني على الحركة السحاقية عند النساء.

لكن عندما أعاود التفكير في الأمر، أدرك أنّ ما أغراني في الكتاب لم يكن الجنس بل اللغة التحريضية. وكما هو الأمر بالنسبة لرواية «مدار السرطان»، التي أخذتها بالفعل خلسة من غرفة نوم والديّ، أو «شكوى بورتنوي»، أو «منزل بيتون» أو «عاشق السيدة شاتيرلي»، كانت أحداث «المجموعة» من المسائل التي لم يكن من المفترض أن أعرفها، أو حتى أن أتمكن من فهمها. شكّل النشاط الجنسي مركز اهتمام الجيل السابق، ولكن ربما كانت العناصر الأخرى في هذه الروايات أكثر إضرارًا بالأفكار السائدة في المجتمع: خيبة الأمل، والخيانة الزوجية، والازدواجية، والنفاق. عَرضت كل هذه الكتب، أيضًا، شعورًا بالكبت الأنثوي والذي تُرجم فيما بعد، في بعض مستويات اللاوعي، إلى الحرية النسوية. ما أزال أتذكر أمي مستغرقة بصمت في قراءة نسخة من كتاب «الغموض الأنثوي» *(The Feminine Mystique)*، الكتاب الثوري الذي ألّفته بيتي فريدان (Betty Friedan) والذي يصف الدودة في صميم ثمرة الزواج والأمومة، لكنني كنت في ذلك الحين أصغر من أن يكون لدي زوج أو أطفال. لقد تعرّفت على القضية النسوية في «المجموعة»، وتملّكتني الدهشة من التعددية الواسعة لمواضيعها المجهولة بالنسبة لي، من انتحار كاي (Kay)، إلى مثليّة لاكي (Lakey)، ووصولاً إلى التسوية الحزينة التي قامت بها دوروثي (Dorothy) في حياتها بعد مغامرتها الجنسية الوحيدة. كانت كل هذه الأحداث تصرخ كاشفة القناع عن حقيقة أزهار الأقحوان المرسومة على الغلاف، من خلال رفع الصوت عاليًا بأن حياة النساء المثقفات الذهن يجب أن ترقى إلى مستوى أعلى من ذلك.

Telegram:@mbooks90

كانت الفتنة هي الهدف الرئيسي من الكلمة المطبوعة منذ نشأتها تقريبًا، بالتأكيد منذ أن علّق مارتن لوثر (Martin Luther) قائمته المؤلفة من خمس وتسعين شكوى ضد التسلسل الهرمي للكنيسة الكاثوليكية على باب الكنيسة. لقد أدى اختراع المطبعة إلى حركة الإصلاح، وإلى الثورات على الصعيدين السياسي والجنسي، وحوّلت الكتب المؤمنين إلى ملحدين، كما أنها هدت الملايين إلى الإيمان، أولئك

الذين لم يعرف أسلافهم النصوص الدينية إلا على أنها أعمال أدبية فقط، تحف فنية مخبوءة بعيدًا في غياهب الأديرة.

والعكس صحيح أيضًا؛ كان الطغاة يجدون في الجهل الحل الأمثل للسيطرة على الناس. في المقال الافتتاحي في كتاب هازل روتشمان (Hazel Rochman) عن التعددية الثقافية، وهي حركة تسعى نحو المزيد من الفن والأدب الشمولي والتي روّجت لها بعض الكتب بينما سخرت منها كتب أخرى، تتذكر هازل الأخلاقيات السائدة في جنوب إفريقيا التي تعيش تحت وطأة قمع الشرطة وملاحقتها للمواطنين التي دفعتها هي وزوجها إلى وضع كتبهما في صندوق ودفنه في الفناء الخلفي: «لقد جعلتنا سياسة الفصل العنصري ندفن كتبنا؛ كما كانت محاكم التفتيش والنازيين يحرقون الكتب، وكما كان العبيد في الولايات المتحدة ممنوعين من قراءة الكتب. تم حظر الكتب في كل مكان، من أمريكا اللاتينية إلى أوروبا الشرقية وآسيا، ولكن ما تزال القصص عصيّة على الزوال هناك».

بالنسبة لجزء من الجنس البشري، جاءت الاضطرابات السياسية وحركات الإصلاح من خلال التجربة، من خلال اضطهاد الملوك الوراثيين وفساد الكنائس القائمة، من خلال جلوس الأشخاص ذوي البشرة السوداء في المقاعد الخلفية في الحافلة وفقًا لقوانين الفصل العنصري «جيم كرو ساوث» (Jim Crow South)، أو التحرش الجنسي في خطوط تجميع المصانع التي يسيطر عليها الذكور حتى الآن. لكن لا يمكن لهذه الأمور أن تفسّر الصحوة الأخلاقية والروحية لأولئك الذين نشأوا براحة وسهولة نسبيًا، ولم يواجهوا أبدًا أي نوع من أنواع التعصّب أو التعالي. كان هذا هو الحال معي، وأظن أن الفضل يعود إلى كتابين في زرع الفكر الليبرالي في عقلي. أحدهما كان الكتاب المقدس، أو على الأقل العهد الجديد، الذي اعتُبر فيه يسوع مساعدة المحتاجين أمرًا مسلمًا به كجزء ضروري من الوجود. أما الكتاب الآخر فكان من أعمال «ديكنز»، الذي استخدم العرض المذهل للشخصية وظروفها بفعالية كبيرة للتواصل مع حقائق الظلم الاجتماعي. لقد فعل ذلك في رواية «المنزل الكئيب» *(Bleak House)* من خلال حكم القانون الخانق، ومن خلال سجون المدينين في رواية «دوريت الصغيرة» *(Little Dorritt)*. لكن ما تزال قراءتي

الأولى لرواية «ترنيمة عيد الميلاد» *(A Christmas Carol)* محفورة في ثنايا ذاكرتي، حيث يزمجر سكروج (Scrooge) بأعلى صوته متحدثًا عن أولئك الذين يفضلون الموت على الذهاب إلى ملاجئ الفقراء: «من الأفضل أن يموتوا، ويقللوا من فائض السكان». إن الرؤى، وليس الكلمات، هي ما غيّر رأي سكروج وقلبه، لكن عندما يتوسل إلى شبح عيد الميلاد ليؤكد له أن ابن كاتبه، تايني تيم (Tiny Tim) المشلول، لن يموت، يتهكّم الشبح منه قائلاً: «وما الضير من ذلك؟ إذا كان يرغب في الموت، فمن الأفضل له أن يموت، و يقلّل فائض السكان».

ويضيف قائلاً: «يا رجل، إذا كان في قلبك رحمة، ولم يكن من الصوّان، فكفّ عن ذلك الرياء الكريه حتى تكتشف ما هو الفائض، وأين يوجد». إنها دعوة للعمل الاجتماعي، وتضرّعٌ روحي، إنها لحظة الذروة في القصة الرائعة التي صاغتها أنامل المؤلف على أحسن ما يكون. تشكّل هذه الرواية خير مثال عن كتاب نجح في أن يكون شخصيًا وسياسيًا وممتعًا في الوقت ذاته.

«اقرأ أعظم الكتب، لكن لا تهمل قراءة الكتب الأقل عظمة أيضًا، فقراءة الأعمال العظيمة محبطة للغاية؛ إذا اكتفيتَ بقراءة أعمال بيكيت (Beckett) و تشيخوف (Chekhov)، فستمضي بعيدًا وينتهي بك المطاف بالاكتفاء بالعمل في توصيل البرقيات في ويسترن يونيون (Western Union) فقط».

إدوارد ألبي

(EDWARD ALBEE)

في عام 1997، شغلت رواية كاثرين باترسون (KATHERINE Paterson)، بعنوان «جسر إلى تيرابيثيا» *(Bridge to Terebithia)*، عدة أجيال من الشباب بقصة الصداقة والفقدان، وأدّت أيضًا إلى فرض سياسة في عدة مدارس في كانساس، تطلب من المعلم سرد كل الألفاظ النابية في الكتب المطلوب قراءتها، وإرسال القائمة لأهالي الطلاب إثر المحاضرة التي ألقتها «آن كارول مور» (Anne Carroll Moore) في مكتبة نيويورك العامة. لقد كان خطابًا رائعًا مثل كتب السيدة باترسون (Ms. Paterson)، التي تتميز بمستواها الجيد بالفعل، وتحدثت عن تفاني

قرائها الأطفال: «تتملكني الشفقة بشكل متزايد تجاه زملائي الكتاب الذين يمضون حياتهم في الكتابة من أجل جمهورٍ البالغين الذين تحكم العجلة حياتَهم. إنهم ينظرون إليّ بتعالٍ في لَبوسٍ من اللطافة، وأنا أدرك ذلك تمامًا، لأني أكتب لليافعين فقط، لكنني لا أعرف أيًا منهم لديه قرّاء يقرؤون رواياتهم مرارًا وتكرارًا».

باعتباري شخصًا يقرأ الكتب نفسها مرارًا وتكرارًا، أعتقد أن السيدة باترسون مخطئة فيما قالت، على الرغم من أنني أعرف ماذا تعني. لقد جلستُ على حافة سرير أولادي مرارًا بينما كنت أقرأ لهم كتاب «بيضٍ أخضر ولحم خنزير» (*Green Eggs and Ham*)، أو بالأحرى بينما كنت أرويها من الذاكرة؛ قرأتُ مرّة كتاب «السفر في أنحاء الكون» ثلاث مرات متتالية عندما كنت في الثانية عشرة من عمري لأنني لم أحتمل أن ينتهي، وأردت لجميع الشخصيات، ميج وتشارلز موري، بل حتى الدماغ النابض المروّع الذي يطلَق عليه الاسم «هو»، أن تبقى على قيد الحياة مرة أخرى لأنها لا تستطيع العيش إلا في ذهني، بحيث شعرتُ كما لو أنني أقتلهم عندما أغلق غلاف الكتاب؛ ولذا كنت أعطيهم قبلة الحياة عندما تقع عينيّ على الكلمات التي خلقت حياتهم. ما زلت أعيد القراءة بهذه الطريقة، كنت دومًا كذلك، وسأبقى أقرأ على هذا النحو. أظن أن هناك الكثير منا -نحن الذين نعيد قراءة الكتاب مرارًا- أكثر ممن تعرفهم السيدة باترسون، وأعتقد أنني أعرف من نحن، وكيف صرنا على هذا النحو. نحن مؤلفون؛ نرقص مع الكلمات، كالأطفال، على نحوٍ أصبح أنماطًا مألوفة من التحليق. أصبحت الكلمات أصدقاءنا وجلساءنا، والأفكار تتراقص معنا، حتى دون الإفصاح عنها بصوت عالٍ. يمكنني القيام بذلك، فهذه شخصيتي.

بالنسبة للبعض منا، تستوجب القراءة إعادة القراءة، وإعادة القراءة تستوجب الكتابة. (على الرغم من أنه لا يوجد أدنى شك في من يأتي أولاً، ومن هو الأرقى؛ كما كتب ألبرتو مانغيل (Alberto Manguel) في كتابه الرائع «تاريخ القراءة» (A History of Reading)، «ربما بإمكاني العيش بدون كتابة، لكني لا أعتقد أنني أستطيع العيش دون قراءة») بعد فترة تصبح القصة مألوفة، وأجواؤها معروفة، وشخصياتها مفهومة، ولا يتبقى شيء يمكن اكتشافه سوى تقنيات الكتابة، فيخطر التساؤل عن سبب استخدام تركيبٍ معين للجملة دون تركيب آخر أكثر بساطة؛

أو تعقيدًا ربما، عن سبب استخدام طريقة معينة لترتيب الأحداث بدلاً من ترتيبها بطريقة أكثر وضوحًا؛ أو حداثة مثلاً؟ ما الذي يستحوذ على القارئ؟ ما الذي كان ضعيفًا أو غامضًا أو فاشلاً في هذا العمل الأدبي؟ هناك طريقتان فقط، في واقع الأمر، كي تصبح مؤلفًا، الأولى هي أن تكتب، والأخرى هي أن تقرأ. «ستتعلمون ما تبقى من الكتب»، هذا ما أخبرتنا به الروائية بي. جيه. كيوت (B.J. Chute)، مُدرِّسة مقرّر الكتابة الإبداعية في الكلية، بعد أن علّمتنا إرسال مقدّمة ما كتبناه إلى دور النشر في مظروف مغلق، يحتوي مظروفًا آخر كتبنا عليه عنواننا وألصقنا عليه الطابع البريدي كي يستخدموه للرد علينا بقرارهم الذي لا مفر منه برفض النشر. وإليكم كيف قام أحد أصدقاء ديكنز، وهو أوّل كاتبٍ سيرة له، جون فورستر (John Forster)، بوصفه وهو صبي: «لم يكن بارعًا أبدًا في لعبة الكرات الزجاجية، أو لعبة البلبل، أو لعبة شرطة وحرامية؛ لكن عظيم سروره ومتعته كان في مشاهدة الأولاد الآخرين... خلال لعبهم هذه الألعاب، وهو يقرأ بينما هم يلعبون».

لا أعرف ما الكتاب الذي كان يقرأه هذا الصبي وهو يشاهد الآخرين يلعبون الألعاب التي لم يكن يتقنها، وقد انقضى على ذلك زمن طويل، في حين كان هو يستهلّ كتابه، أو ما يشبه رقصته الثنائية في عالمه الخاص، بجملٍ سيُكتب لها الخلود. لكني أراهن أنه لم يكن يقرأ أعمال شكسبير بالتأكيد. أرني كاتبًا واحدًا يقول إنه استمد إلهامه في الكتابة من الكتّاب العظماء، وسأريكم كاتبًا آخرًا يقول عكس ذلك. من المروّع للغاية أن تقرأ رواية «ميدلمارش» *(Middlemarch)* وتقول، حتى في سرّك: «يمكنني أن أكتب رواية كهذه!» بدأ كافكا (Kafka) بتعرّفه الأوليّ على عالم القصص، بينما كان يقرأ «شيرلوك هولمز» (Sherlock Holmes) عندما كان طفلاً (طبعًا أقصد عندما كان كافكا طفلاً –وهكذا تتضح الفكرة!). يقول كاتب السيرة الذاتية لفوكنر (Faulkner)، جوزيف بلوتنر (Joseph Blotner): «يتّصف ذوق بيلي في القراءة عندما كان طفلاً بالسطحية، إذ كان مغرمًا بمجلة تُدعى «الولد الأمريكي» *(The American Boy)*؛ كانت قراءتها تستحوذ عليه كليًا، كانت تفتنه القصص القصيرة الهزلية، أو العاطفية، أو المحفّزة؛ والمقالات التي تتحدث عن الرجال المشاهير؛ وأبواب المجلات المعنونة من قبيل «الولد المُحاور» و«الولد جامع

القطع النقدية»». وهكذا وُلدت رواية «الصخب والعنف» *(The Sound and Fury)*، من الكتب المثيرة الصاخبة مثل «كيف كُسِبَ الغرب» (How the West was Won).

قد تضع هذه الحقيقة، لوحدها، المرتبطة بالسيرة الذاتية، نهايةً لإحدى الشائعات الكاذبة للحنين لما تمت قراءته في مرحلة الطفولة الباكرة، وهي الفكرة القائلة بأن الأشخاص لا يختارون كتبًا مشابهة للكتب التي اعتادوا قراءتها عندما كانوا أطفالاً.

في كتابه الفصيح والمفعم بالعاطفة، والذي يدق جرس الإنذار بشكل غير مسبوق حول القراءة والتكنولوجيا، «مرثيات غوتنبيرغ» *(The Gutenberg Elegies)*، يستخدم الناقد سفين بيركيرتس (Sven Birkerts) تجربة مُحبطة لتعليم الطلاب الجامعيين مناقشة «الحافة المفاهيمية»، أو «تحوّل النماذج» في العلاقات بين الناس والنثر. تنبع محنة بيركيرتس من عدم اهتمام طلابه بما يمثّل قصة متحدّية للقراء من تأليف «هنري جيمس»، كإحدى قصصه التي تدور أحداثها حول الضياع والتفكك، والتي يتردد صداها مع أولئك الذين بدأوا في خوض تجربة الفقد والتفكك، ويعترف بأنه عندما كان، هو نفسه، طالبًا جامعيًا، كان منجذبًا إلى كتّاب من قبيل «كيرواك» (Kerouac) و«سالينجر» (Salinger). ومع ذلك، بدلاً من أن يقرر على طلابه «يوم مثالي لبنانافيش» *(A Perfect Day for Bananafish)*، اختار أعمال «واشنطن ايرفينغ» (Washington Irving) و«هنري جيمس» (Henry James)، وعندما لم يرَ حماسًا من قِبل طلابه، خلص إلى نتيجةٍ تقول أنّ التكنولوجيا قد تدخّلت في فهمنا الأساسي للنص المعقد. تذكّرني هذه القصة بعبوس أمينة مكتبة مدرستي الابتدائية لدى رؤيتها لإحدى قصص شخصية «نانسي درو» (Nancy Drew) بين أيدينا الطفولية الناعمة، كما تذكّرني بتوقعات آبائنا وأمهاتنا بأن موسيقى فرقتَي «البيتلز» *(Beatles)* ورولينج ستونز *(Rolling Stones)* تعني نهاية الموسيقى كما كان معروفًا، وحتى الآن.

في الواقع، تتمثل إحدى أكثر الظواهر المؤذية في اختيار الكتب المقررة في المناهج الدراسية في الفرض القسري للعمل الجاد، في عصرٍ يشعر فيه القارئ

بالابتعاد عن هذه الكتب، ليس عن الكتاب المقرر بحدّ ذاته، بل عن كافّة الكتب التي تنحو هذا المنحى، بل أحيانًا عن الكتب بالإجمال. لذلك، فمن غير المرجّح أن يصبح الطلاب الذين يستهلّون مدرستهم الثانوية قراءً متحمسين للتحفة الفنية «ميدلمارش» *(Middlemarch)* في وقت لاحق من حياتهم لأنهم درسوا رواية «سيلاس مارنر» *(Silas Marner)* خلال مرحلة دراستهم الثانوية. إذ في كثير من الأحيان، لا تحثّ متابعة الساحر «ديفيد كوبرفيلد» (David Copperfield)، في سن الثالثة عشرة، الطلاب على قراءة رواية «منزل كئيب» *(Bleak House)* بقدر ما تستدرجهم إلى الاكتفاء بالاطلاع على الدراسة المختصرة المعَدّة عنها في الدليل المختصَر لدراسة الطلاب «كليفز نوتس» *(Cliffs Notes)* (بالنسبة لأولئك الذين يشبهوني في كونهم مصممين على تربية أطفالهم على المحافظة على ارتباطهم العاطفي القوي بأعمال ديكنز، أوصي بقراءة «ترنيمة عيد الميلاد» *(A Christmas Carol)* بصوت عالٍ خلال إحدى العطلات). ربما هناك بالفعل أطفال تعلموا حب القراءة من خلال قراءة «موبي ديك» *(Moby Dick)*، ولكني أشكّ بصحة هذا الأمر. بالتأكيد لم يكن ميلفيل (Melville) ليجعل منّي كاتبةً، إنّ الكتاب العالق في ذهني والذي له الفضل في إضرام جذوة الإلهام لديّ، بخلاف الكتب التي كانت تُقرّر خلال دراستي، والذي يُعد مصدر إلهام كبير للعديد من الكتّاب، والذي يتم تجاهله في الغالب في زحمة إعادة قراءة الكتب التي تلفت الأنظار، هو كتاب «سبعة عشر» *(Seventeen)* للكاتب بوث تاركينجتون (Booth Tarkington)؛ هذا الكتاب هو الذي جعلني أقول «يمكنني أن أصبح كاتبة».

أو ربما يعود الفضل لكتابين آخرين في انتهاجي الطريق الصحيح لأصبح كاتبة. كان لدى والدِي نقطة ضعف تجاه الكتب الفكاهية، كونه رجلاً مرحًا للغاية، وما أزال أتذكر كيف كان يضحك من أعماق قلبه عندما يشاهد أعمال ماكس شولمان (Max Shulman) وجان شبرد (Jean Shepherd). لقد شاهدته مرات عديدة عندما كنت فتاة صغيرة يستعرض صفحات «الأمور العديدة التي تحبها دوبي جيليس» *(The Many Loves of Dobie Gillis)* أو «نثق بالله: كل الآخرين يدفعون المال» *(In God We Trust: All Others Pay Cash)*، ويضحك من

أعماق قلبه وكأن هناك من يدغدغه حقًا، لدرجة أنه بالكاد يستطيع أن يأخذ نفَسًا، بل يبدو أحيانًا وكأنه على وشك الموت من شدّة الضحك. وأذكر مرّة أخرى عندما شاهدت والدتي وهي تقرأ كتابًا استمرّ غرامها له سنين طويلة، وهو «شارع الدلفين الأخضر» (*Green Dolphin Street*)، من تأليف «اليزابيث غودج» (Elizabeth Goudge)، يحكي قصة شقيقتين مغرمتين برجل واحد. ما أزال أذكر سماع صوت نشيجٍ شديد، لألتفت وأرى أمي تبكي. لقد انغرس هذا الأمر في أعماق ذاكرتي، وهو قدرة الكلمات المطبوعة على جعل والدي يضحك ووالدتي تبكي.

وأخيرًا، هناك بعض اللحظات القليلة المحفورة في ذاكرتي والتي كان لها دورها في تحريضي على الكتابة، وهي لحظات خاصة بي وحدي؛ عندما كنت أعود إلى المنزل من المدرسة، معاقَبة بسبب سلوك سيئ ارتكبتُه، فأنزوي مع كتاب «أن تقتل طائرًا بريئًا» (*To Kill a Mockingbird*) وأسمع صوت انكسار ذراع جيم (Jem) بالوضوح الشديد ذاته الذي أسمع به صوت ساعة المطبخ. وكذلك عندما كنت أستلقي على الشاطئ منصتة إلى راديو الترانزستور، ويتملكني شعورٌ رهابٌ الخوف من حياة البلدات الصغيرة وأنا في وسط شارع ماين (Main Street) المزدحم، لا سيما الذي تعاني منه النساء، لدرجة شعوري برعشة تسري في جميع أنحاء جسدي، وكأنني شبح يمشي فوق قبري.

أذكر أيضًا أنني في عصر أحد الأيام في الجامعة، تخلّفت عن حضور ندوة عن كتاب عصر النهضة حتى أتمكن من إنهاء رواية «الأبناء والعشاق» (*Sons and Lovers*)، فقد كنت محلّقة في عالم بعيد من العاطفة التي تشعر بها امرأة مخنوقة بخيبة أملها في أبنائها. لقد عزّز هذا الكتاب يقيني في أنني يجب أن أحاول الكتابة حتى لو كان نتاجي ليس بروعة هذه التحفة الفنية، علّني أحرّض الروح في عتمة الحياة اليومية أو أثيرها أو أضخّ الحياة فيها، بينما تكمن هي مخبوءة، وكأني بذلك أستخدم شيفرة حربية داخل ما أكتبه على الآلة الكاتبة «ماركة رويال» القابعة على مكتب غرفتي في السكن الجامعي، لا بدّ من أن أبذل قصارى جهدي لأنجح في هذا الأمر. لماذا قد يطمح أيّ شخص إلى أن يكون رئيسًا للولايات المتحدة أو لشركة جنرال موتورز إذا كان بإمكانه أن يكتب أعمالاً مثل «دي. إتش لورنس» (D.H.

Lawrence) بدلاً من ذلك؟ هذا ما كان يشغل فكري.

هذا لا يعني أنني على الفور وضعت نُصب عينيّ هدف الكتابة باستمرار؛ إذ إني أشك أيضًا في أن يكون هذا الهدف هو محور حياة المؤلف. لكنني بدأت أعتبر نفسي كاتبة، رغم أنني لم أكن متأكدة بعدُ من نوع الكتّاب الذي كنتُ عليه. ومثل معظم الشباب، مررت بمرحلة العشق الرومانسي للشعر، الغرام بموسيقى الكلمات وإيقاعها، وبالفكرة المريحة القائلة بأن كتابة الشعر تتطلّب جهدًا أقلّ بكثير مما تتطلّبه كتابة رواية حتى ولو كانت رواية هزيلة. لقد مرّ هذا العشق الرومنسيّ في حياتي بمرحلة مُتوقّعة. بدأت هذه المرحلة عند انتهاء المدرسة الابتدائية. عندما صارت قراءة الشعر تترنّح بين أن تكون عقابًا وأحجية إملائية، إذ ما تزال قصيدة «ساعة الأطفال» (*The Children's Hour*) محفورة بالذاكرة إلى الآن، ووصلتُ إلى الجامعة، عندما درستُ مقرر الشعر الحديث عند الأستاذ نفسه الذي اعتبر «جالسوورثي» (Galsworthy) روائيًا غير جدير بالاهتمام. كان يمتلك صوتًا رفيعًا جهوريًا يضجّ في الفصل الدراسي الصغير المزدحم، متغلّبًا بنجاح على صوت حركة المرور في برودواي، ويضع النظارات النصفية التي ما يزال ذهني يربطها بالذكاء رغم أنني أرتديها الآن؛ وأكرهها. وعندما قرأ قصيدة «هاف سيلوين موبيرلي» (*Hugh Selwyn Mauberley*) لعزرا باوند (Ezra Pound's) بصوت عالٍ، منكبًا برأسه الأشعث الكبير الحجم على الصفحة -«لمدة ثلاث سنوات، غرّدَ خارج السرب في عصره / كافحَ لإنعاش الفن الميت / فن الشعر؛ للحفاظ على ما هو سامٍ / بالمعنى القديم. لقد كان مخطئًا منذ البداية»- عرفتُ أنني لستُ شاعرة، بغض النظر عن أي شيء آخر قد أكونه. امتلأت كتبي في ذلك المقرر بالملاحظات المضنية التي دوّنتها على هوامشها، كما لو أنني إن أوليت اهتمامًا بالغًا بما فيه الكفاية ستشتعل جذوة الشعر في صدري. لكن لم يكن الشعر يسكن عالمي الداخلي. كتبت أدبًا خياليًا خلال دراستي الجامعية، ثم كتبت عن الواقع لسنوات عديدة بعد ذلك، على أفضل ما أمكنني جمع الحقائق اللازمة واكتشافها ووصفها، وكأنني مراسلة صحفية. ثم عدت لكتابة الأدب النثري من جديد. علّمتني القراءة كيف أفعل كل ذلك.

«لقد انتهى عصر الكتب»، هذا ما قاله لي رئيس تحرير إحدى المجلات التي لا

تُنشر إلا على الإنترنت في أحد الأيام في مؤتمرٍ حول مستقبل صناعة الصحف. يا لحظي العاثر؛ بعد كل هذه السنوات من قراءة الكتب، وبعد أن كتبت في نهاية المطاف كتابي الأول تأتيني هذه الملاحظة القاتلة. عندما وجدت وقتًا لترتيب الكتب في مكتبتي أبجديًا. حلّ كتابي بين «بروست» (Proust) و«أين راند» (Ayn Rand)، لقد بدا هذا الأمر ممثلاً لكيفية قراءتي طوال حياتي، متنقلة بين الكتب العظيمة وتلك التي بالكاد تُعتبر مجرد كتب شعبية جذابة فقط. ما زلت أذكر عندما لمست يداي كتابي الأول ذو الغلاف السميك، وصدف أن أثارت شاحنة «فيديرال إكسبريس» (Federal Express) مارّة بقربي، سحابة من الحصى والأتربة على الطريق الريفي عندما كنت مندفعة في تمزيق الظرف لإخراج الكتاب منه، أمسكته بيديّ الممدودتين ورفعته قليلاً ثم أنزلته، فقط لأشعر بثقله، وكأني كنت أقيّمه حسب وزنه، لقد حملته بالطريقة التي يحملون بها الأطفال الصغار بمنتهى الحنان في مراسم الاحتفالات الدينية، كالطهور ربما، أو المعمودية. الكتب ذات الأغلفة السميكة، هي منتهى طموح كل كاتب، سواء اعترف بذلك أم لا.

لقد اجتاحت هزّة عنيفة مخيفة جميع أنحاء هذه الصناعة، سواء كانت كتابة، أم نشرًا، أم صحافة، في حين كنت منخرطة فيها جميعها. لقد أصبح الكمبيوتر أعجوبة تكنولوجية أشبه ما تكون بسكين الجيش السويسري المتعددة الاستخدامات؛ ففي كل مرة تعتقد أنك عرفت حدود ما يمكنه أن يفعله، يتّضح لك أنه قادر على فعل ما هو أكثر بشكل أسرع وأفضل وأكثر دقة. كتبتُ روايتي الأولى باستخدام جهازٍ كبير قديم يصدر بعض الأزيز عند تخزين المعلومات، ولم تتجاوز ذاكرته 256 كيلو بايت فقط، وبالكاد اتّسعت ذاكرته الصغيرة تلك للكتاب وبرنامج معالجة النصوص وبعض البرامج الصغيرة الأخرى. بينما ألّفت روايتي الثالثة باستخدام جهاز ملائم كي يوضَع في حقيبة يدي ويزن أكثر بقليل من طفل حديث الولادة. كان البرنامج يصحّح علامات الترقيم والأحرف الكبيرة أثناء الطباعة؛ إذ عندما كنت أكتب حرف «ا» المستقل بذاته على شكل حرف صغير، كان يحوّله آليًا إلى حرفٍ كبير، مصححًا أخطائي بشكل حتمي بلا هوادة، ومن المؤكد أنه كان ينقذني من الأخطاء التي لا بدّ أنني ارتكبتها، وقد استطعت الاحتفاظ بالعديد من نسخ كتابي على قرصه الصلب

بكل يسر. ولم تصل الفترة الفاصلة بين نشر هذين الكتابين إلى عقد من الزمن.

نظرًا لأن عصر الكمبيوتر اجتاح المجتمع بموجة من أجهزة المودم وبرامج تصفّح الإنترنت عبر الولايات المتحدة في نهاية القرن العشرين، أصبح من الممكن تصديق أولئك الذين قالوا إن الكتب لا تحتاج أبدًا إلى مغادرة روح هذا الجهاز الجديد أبدًا، وأن موجة المستقبل القادمة هي كما يلي: أصبحت رواية «عصر البراءة» (*The Age of Innocence*) متوفرة عبر الإنترنت، جاهزة للحصول عليها وقراءتها بضغطة زر؛ ورواية «المنشأ» (The Fountainhead) متوفرة عبر الإنترنت أيضًا، ربما مع كل الخطب الانفعالية الموضوعية المتعِبة المرتبة بخط مختلف لسهولة التخطي (أو حتى عمليات الحذف الصريحة التي كان على محرر الكاتبة أين راند (Ayn Rand) الاهتمام بها). لا يوجد ورق، ولا توجد مساحة محجوزة على الرف، بل هناك إضفاء الطابع الديمقراطي على القراءة في نهاية المطاف: مكتبة كاملة متوفرة في صندوق أصغر بكثير من مجلد واحد من «الموسوعة البريطانية» المغلفة بغلاف جلدي قديم. وبالإضافة إلى كل المخاوف القديمة – عدم انتشار القراءة والكتابة، عدم الاهتمام، ندرة الجودة - أضيف خوف جديد يُدعى رُعب الرقائق الإلكترونية.

اندلعت مناوشات صغيرة في هذه الحروب التقنية في صيف عام 1997 على صفحات «كتاب القرن» (*The Horn Book*)، مجلة أدب الأطفال، وكانت تمثل كلاً من سيناريوهات أسوأ الحالات وحقائق مستقبل النشر في عصر الانجراف التكنولوجي. قامت الكاتبة التي تعمل أمينة مكتبة والتي تدعى سارة إليس (Sarah Ellis) بتجربة، حيث قرأت على كمبيوتر محمول كتابًا للأطفال بعنوان «نهاية قوس قزح» (*The End of the Rainbow*). لكنّ هذا لم يكن مجرد أي كتاب عادي، فهو يمثّل أعظم مخاوف أولئك الذين يحبون أدب الأطفال، ويعرفون مدى صعوبة النشر في عصر يراعي الكلفة قبل أي شيء آخر. كان كتاب «نهاية قوس قزح» جزءًا من سلسلة كتب دنماركية عن صبي اسمه «باستر» (Buster) نشرتها دار نشر «داتون» (Dutton)؛ أقنع مسار مبيعات الكتب التي سبقت هذا الكتاب الناشر بتقديمه مجانًا على الإنترنت بدلاً من تحمّل أعباء تكاليف النشر على شكل كتاب.

نظرت السيدة إليس إلى تجربتها في قراءة «باستر» على الكمبيوتر بطريقة حيادية، لكنها وجدت أنها كانت تجربة غير مرضية في نهاية المطاف، وخلصت إلى أن عملية التمرير لأسفل الشاشة، والقراءة بطريقة خطية، على آلة مرتبطة بأذهاننا بالعجلة، أمور مناقضة للقراءة من أجل المتعة، تقول: «حولتني الشاشة إلى قارئ يشعر بالنفور». وعندما ذهبت إلى المكتبة وأخذت كتابًا ورقيًا سابقًا من كتب باستر، اختفى نفورها، وكتبت «لقد تملكني شعور بالاستسلام، بأن أسلّم أمري لشخص ما، وهو أحد الملذات العظيمة التي تمنحها لنا الروايات الخيالية»، واستعادت تجربتها مع الكِتاب بنقاء وبساطة، وقالت: «استرجعتُ الصوت الناعم لأصابعي تلامس الصفحات، وصوت تقليب الصفحات عند الرجوع إلى الفصل السابق». لم يكن تمرير الصفحات على الشاشة مكافئًا لتقليب صفحات الكتاب، مع أن جهاز الكمبيوتر ينتقل معك أينما ذهبت، إلا أنه ليس صديقًا ودودًا.

تعتقد السيدة إليس أن تجربتها أثارت العديد من الأسئلة حول مستقبل القراءة في مواجهة هيمنة أجهزة الكمبيوتر، وهي أسئلة سئثار مرارًا وتكرارًا في السنوات القادمة. ولكن، عندَما قرأتُ كلماتها، حصلتُ على إجابات أكثر مما وجدت أسئلة مطروحة، ملأ سؤال من بينها قلبي بالاطمئنان والرضا. في الوقت الذي تنبأ فيه مناصرو التكنولوجيا بالموت الوشيك للصورة التي نعرفها عن الكتاب، كنا جميعًا في عالم المطبوعات في حالة من الهياج حول محاولة معرفة كيف ستغير التكنولوجيا الجديدة صناعة المطبوعات التي صارت قديمة. وخلال السنوات الخمس التي انقضت بين وظيفتي الأولى كفتاة نسخ، ووظيفتي في صحيفة نيويورك تايمز كمراسلة، بدأت الصحف الكبرى في تنسيق الآلات الكاتبة لديها، وإحضار أنظمة الكمبيوتر التي يكتب عليها المراسلون نسخة اليوم وينقّحها المحررون. كانت ثورة متواضعة، بالنظر إلى المسيرة الطويلة من التقدم الذي ما يزال أمامنا، لكن تلك الثورة لم تخلُ من الألم؛ إذ أصرّ أحد المراسلين الأشد وقارًا واحترامًا في صحيفة التايمز على أنه كان كبيرًا في السن بحيث لا يمكنه تقبّل أمور جديدة كهذه، وهكذا كان يتعيّن نسخ مقالته إلى الكمبيوتر من نسخته الورقية التي واصل كتابتها على الآلة الكاتبة اليدوية القديمة.

ولكن قيل إن الثورة الحقيقية قادمة في سياق المنتَج نفسه، وعُقدت لجنة تلو الأخرى في المؤتمرات الصحفية حول ما إذا كان سيتم استبدال الصحف بتحميل أخبار اليوم على شاشة الكمبيوتر. بدا الأمر معقولاً فقط لأولئك الذين أصبحت مراسلاتهم حروفًا مرسلة من كمبيوتر إلى آخر، بدلاً من ملف رسائل الأعمال الورقي، ومما لا مفر منه أنه صار من الممكن ببساطة استبدال مجموعة الصحف الورقية المطوية على هيئة تلك اللفافات التي تُرمى على ممسحة باب البيت قبل الفجر كل صباح، بصحيفة افتراضية على جهاز الكمبيوتر القابع في المطبخ، بينما يسترخي فنجان القهوة بجانب لوحة المفاتيح.

ربما سيحدث هذا يومًا ما، بشكل أو بآخر؛ ربما سيبدو من المُستغرَب في المستقبل وجود شخص كان يشكّ في أن الكتاب المطبوع - سواء كان غلافه سميكًا أو ورقيًا - يمر بغروب العمر في نهاية القرن العشرين. ولكن بدا أنّ العقد الذي تلا الهلع الأولي من زوال الطباعة على الورق ينذر بنهاية مختلفة تمامًا. ظهرت الأخبار بالفعل على أجهزة الكمبيوتر، وكذلك الأمر بالنسبة للمجلات، فقد تم إنشاء بعضها صراحة للمستخدمين على الإنترنت. كان هناك كتب مثل كتاب «باستر» الذي نشره «داتون» على الإنترنت بدلاً من المخاطرة بالفشل التجاري. لكن أيًا منها لم يحل محل المنتج الأكثر تقليدية. أُدرك كلٌّ من أولئك الذين يعملون في مجال الكتب وأولئك الذين يعملون في مجال تكنولوجيا الكمبيوتر شيئًا أدركناه نحن القراء في أعماق قلوبنا: أن ارتباط الناس لا يقتصر على ما هو داخل الكتب، ولكنه يشمل الكائن نفسه، الشكل المألوف القديم التي اتّخذ شكله لأول مرة قبل أربعة قرون. الكمبيوتر المحمول هو شيء رائع؛ لا أصدق الآن كيف كانت حياتي بدونه، خاصة في مجال الكتابة والمراجعة. (ما يزال، بالطبع، هناك بعض الروائيين الذين يحبون التحدث بحماسة عن الكتابة باليد في المجلات الورقية الخاصة، أو عن استخدام الآلة الكاتبة القديمة من ماركة «رويال» التي حصلوا عليها عندما ذهبوا إلى «تشوت» (Choate) قبل أربعين عامًا. ليس أنا بالطبع.) لكن الكمبيوتر ليس بديلاً عن الكتاب؛ إذ لا أحد يرغب في أن يأخذ الكمبيوتر معه إلى الفراش في نهاية يوم طويل، لقراءة فصل أو فصلين قبل النوم. لا أحد يريد أن يُخرج كمبيوترًا من حقيبته

في مترو أنفاق مدينة نيويورك لتمضية الوقت بين شارع السادس والتسعين ومركز التجارة العالمي. لا أحد يريد أن يقدّم قصة «هايدي» (Heidi) على قرص مضغوط إلى ابنته بمناسبة عيد ميلادها الثامن، أو أن يكتب ملاحظاته الهامشية عن الشاعر «ويليام كارلوس ويليامز» (William Carlos Williams) على الشاشة. على الأقل، لا أحد يريد أن يفعل ذلك حتى الآن، حتى أولئك الذين يسبقونني بأشواط في المجال السيبراني. الشعور بعدم الارتياح الذي شعرت به السيدة إليس أثناء قراءة كتاب على الكمبيوتر، والذي وصفته ببلاغة في مقالها في «كتاب القرن»، هو ما يشعر به الكثير منا، وهو سبب استمرار الكتاب في الازدهار. تتساءل السيدة إليس عما إذا كان هذا أمر متعلق بالأجيال، إذا ما كانت تجد أن القراءة من الشاشة أقل إرضاءً بالنسبة لها من الأطفال المولودين في عصر الكمبيوتر. لكن لديّ ثلاثة أطفال ولدوا في عصر الكمبيوتر، وبينما هم يلعبون الألعاب ويرسلون البريد الإلكتروني ويقومون بالكثير من الأبحاث على أجهزة الكمبيوتر الخاصة بهم، فإنهم يقومون بمعظم قراءاتهم باستخدام كتب عادية قديمة، بعضها كان لي منذ سنوات عديدة. يبدو أنهم يحبون القراءة بهذه الطريقة. نشأت ابنتي الصغيرة مع نسخة من «مشكلة مدرّس آرثر» *(Arthur's Teacher Trouble)* على قرص مضغوط، وهي نسخة تفاعلية من كتاب الصور الذي سمح لها باستخدام الماوس لفتح الصناديق وجعل العصافير تطير. لكنها لم تتخلّ عن قراءة النسخة الورقية، حيث قالت: «أحب الكتاب الحقيقي».

الكتاب الحقيقي، وليس النسخة الافتراضية، هو المطلوب في كثير من الأحيان. بعد كل شيء، لم يقرّر ناشر «سلسلة كتب داتون للأطفال» (Dutton Children's Books) نشر «نهاية قوس قزح» عبر الإنترنت لأن الأطفال كانوا يطالبون بقراءته على الكمبيوتر. كانت أسبابه مالية وليست فلسفية؛ إنه ببساطة لم يعتقد أنه قادر على تحمل الخسارة التي سيتكبدها الكتاب من خلال النشر التقليدي. قد يستخدم أصحاب النظرة الكئيبة والمكتبة الافتراضية هذا الأمر للتعميم بشأن مستقبلٍ لا يتم فيه النشر الورقي لمئات، وربما آلاف الكتب الرائعة على الإطلاق. ولكن الحقيقة هي أن النشر بكل تجسيداته -سواء عبر المطابع الصغيرة، أو المطابع الكبيرة، أو المطابع

التي تطبع على حساب الكاتب، أو المطابع الجامعية- ينتج العديد من الكتب الجديدة اليوم أكثر مما كان عليه الحال قبل خمسين أو مائة عام. لقد تمت إضافة أكثر من 350,000 كتابٍ جديدٍ إلى مكتبة الكونغرس عام 1995 وحده؛ هذه المؤسسة، التي تأسست بتمويل يبلغ 5,000 دولارٍ أمريكي منذ قرنين، لديها الآن 200 ضعف عدد الكتب التي كانت موجودة فيما مضى في المكتبة الأسطورية في الإسكندرية.

وإذا نجحت بعض الكتب الجديدة في الوصول إلى الإنترنت فقط، أليس هذا أفضل من فقدها تمامًا؟ قدّمت التكنولوجيا الحديثة لناشر «كتب داتون للأطفال»، كريستوفر فرانسيشلي (Christopher Franceschelli)، حلاً وسطًا مفيدًا بين تحمّل خسارة مالية كبيرة وعدم تقديم الكتاب للقراء على الإطلاق. لقد كتب ببلاغة في رسالة إلى «كتاب القرن»، «نحن نعيش في عصر انتقالي، ربما لا يختلف أبدًا عما كان عليه الوضع قبل خمسمائة عام. وهكذا، كان على الثقافة بأكملها أن تتصارع مع معنى إعادة اختراع الغرب للنوع النقّال من الأشياء. وحتى في ذلك الوقت، كان هناك من أبدوا حسرتهم على فقدان الملمس، عندما أفسحت المخطوطة المصممة بشكل فردي والمزّينة يدويًا، والمزخرفة بالأحرف الأولى من الأسماء والغلاف الجلدي، الطريق إلى الصفحات السوداء والبيضاء البسيطة جذريًا التي أنتجها ميكانيكيًا غوتنبرغ ومن جاء بعده. في الواقع، هناك من يجادل بالقول إن الحركة البروتستانتية بأكملها لم تكن ممكنة إلا بعد أن فقد الكتاب قيمته الطوطمية كتجسيد حرفي للكلمة الإلهية، ليظهر مرة أخرى باعتباره كتابًا رخيصًا ومحمولاً، مع وجود نص قابل للتغيير يمكن الوصول إليه (ويمكن تفسيره) من قِبل الجميع».

وفي سرده لتاريخ القراءة، يخلص ألبرت مانغيل (Albert Manguel) إلى القول: «من المثير للاهتمام أن نلاحظ المرات العديدة التي يروّج فيها التطور التكنولوجي -مثل التطور الذي قام به غوتنبرغ- للوضع الذي يُفترض أن يحل محله». انظر إلى آلاف الكتب، مثلاً، التي تُباع يوميًا على الإنترنت. بشكل أو بآخر، نجحت خدمات الكمبيوتر التي قيل أنها تنطق بحكم الإعدام على شراء الكتب في أمريكا، بدلاً من ذلك في جعل الأمر أكثر سهولة بالنسبة لمن يتقنون المهارات التكنولوجية.

وقد تبنّت كاثرين باترسون (Katherine Paterson)، في خطابها الذي ألقته في المكتبة، وجهة النظر البعيدة المدى أيضًا، حيث وصفت يأسها من محاولة العثور على معلومات باستخدام خدمةٍ عبر الإنترنت ولجوئها إلى موسوعة قديمة والعثور على المعلومات التي أرادتها هناك، لكنها أشارت أيضًا قائلة: «أعتقد أنه من الواجب علينا أن ندرك أننا لسنا الجيل الأول الذي يخشى من التغييرات التي يبدو أنها تبتلعنا، فقد قال أفلاطون، كيلا ننسى، في كتابه «الحوارات» (*Dialogues*) أنه إذا تعلّم الناس القراءة والكتابة، فسيختفي الشعر، لأنه لم تتم المحافظة عليه بشكل صحيح، إلا من خلال التقاليد الشفهية».

حسنًا، لقد كان أفلاطون مخطئًا، وكذلك هم، برأيي، هؤلاء الأشخاص الذين يتوقعون زوال الكِتاب، وخاصة الذين يتوقعون موته بسبب الرقاقة الإلكترونية. دائمًا ما تذكّرني المناقشات التي تدور حول هذه القضية بالمناقشات التي دارت في طفولتي حول القفزة النوعية في أنواع الطعام التي ستَنتج عن التطوير الكبير في مجال طعام روّاد الفضاء. إذ سمعنا أننا بعد وقت قصير سنكون قادرين على تناول مأدبة كاملة على شكل حبوب صغيرة، وأننا سنتمكن من حمل البوظة في جيبنا، نجهزها من خلال غسلها بالماء، ثم تصبح جاهزة لنتناولها عندما يكون الطقس حارًا، وكأنها طازجة تمامًا.

لقد مرّ ثلاثون عامًا منذ أن سار الإنسان على سطح القمر لأول مرة، وعندما يجلس الناس إلى عشاء قديم الطراز، فإنهم ما يزالون يجدون أمامهم طبقًا من اللحم البقري المشوي والبطاطس المهروسة، وليس كبسولة وكوبًا من الماء. وعندما يشتري الناس البوظة، يجدونها تتمتع بثلاث صفات؛ فهي رطبة وباردة ورائعة. ذلك لأن الناس يحبون الشيء نفسه، فهم لا يأكلون البطاطا المهروسة مع صلصة اللحم لأنهم يحتاجون إلى التغذية فقط، ولكن لأن البطاطا المهروسة وصلصة اللحم رائعتين في العديد من الطرق: الحرارة، والقوام، والانزلاق السلس لصلصة اللحم فوق لسانك. وهذه هي الحال بالنسبة للكتب؛ لا يتعلق الأمر بحاجتنا إلى المعلومات فحسب، ولكننا نريد أن نتذوقها، ونحملها معنا، ونشعر بثقلها تحت ذراعنا؛ نحن نحب الشيء ذاته.

من المستحيل أن يكون عصر الكتاب قد أفل، إذ إن كثير من الناس يحبونه. من المحتمل أنه يمرّ بأوقات عصيبة، ولكن العثور على أدلة تثبت هذا الأمر أكثر صعوبة مما يعتقد الكثير من الناس. صحيح أنه لم يعد هناك نشرٌ للكتب على شكل مسلسلات في المجلات، وهو شكل من الكتب التي جعلت الروايات ذات مرة متاحة لملايين القراء الذين لم يتمكنوا من تحمل التكلفة الباهظة للكتب ذات التجليد الفني، وصحيح أن المتاجر لم تعد تبيع الكتب، وأن الكثير من المتاجر التي يُفترض أنها متاجرُ كتبٍ صارت أقرب ما يكون إلى متاجر الهدايا، حيث يوجد الكثير من المفكرات اليومية والحلي الرخيصة، وهذا أمر مرعب بعض الشيء، أن تجد في العديد من متاجر المولات جدارًا طويلاً كاملاً مُخصصًا لبيع الكتب الخفيفة المخصصة لتمضية الوقت، وقسمًا صغيرًا ضيقًا إلى جانبه مخصصًا لبيع الكتب الأدبية. هذا القسم الثاني، الأصغر، مخصص بشكل أساسي لكتّاب غيّبهم الموت، أموات يمثلون جزءًا كبيرًا من أفضل ما أنتجه عالم الكلمات على امتداد عمره الطويل.

لكن الحقيقة المطلقة هي أن هؤلاء الكتّاب ما يزالون أحياء بيننا. إن مؤلفي الكتب لا يموتون حقًا؛ بل حتى شخصياتهم، حتى تلك الشخصيات التي ترمي نفسها أمام القطارات أو تُقتل في المعارك، هم وشخصياتهم يعودون إلى الحياة مرارًا وتكرارًا. الكتب هي طريق الخلود. سيبقى أفلاطون (Plato) خالدًا إلى الأبد، كما هو الحال مع ديكنز (Dickens)، والدكتور سوس (Dr. Seuss)، وشخصيات «سوميس فورسايت» *(Soames Forsyte)*، و«جو مارش» *(Jo March)*، و«سكروج» *(Scrooge)*، و«آنا كارنينا» *(Anna Karenina)*، و«فرونسكي» *(Vronsky)*. ومرارًا وتكرارًا، سيبقى «هيثكليف» (Heathcliff) يجوب المستنقعات بحثًا عن حبيبته «كاثي» (Cathy)، ومرارًا وتكرارًا، سيبقى «أهاب» (Ahab) يقاتل الحوت. من خلال هذه الكتب جميعًا نعيش أوقاتًا أخرى وأماكن أخرى وحياة أخرى، وبذلك نتمكّن من أن نصبح أكبر من ذاتنا الواقعية بكثير. الأموات الوحيدون هم أولئك الذين يعشّش الذبول والوهن بداخلهم، غير قادرين على تخطّي حاجز حياتهم الخاصة لينطلقوا إلى اكتشاف غمار حياة الآخرين.

«الجهل هو الموت، والعقل المغلق هو النعش».

ما زلت أذكر جلوسي في عصر أحد الأيام الباهتة في منزلٍ ريفي قديم متهالك أتحدث إلى العرّابة المسنّة لإحدى عائلات النشر الكبرى في أمريكا، وهي امرأة معروفة باهتماماتها الواسعة سواء كانت سياسية، أو اجتماعية، أو فكرية. عندما قارب حديثنا من نهايته، وقفت متحفّزة، ونظرت بحدة إلى مسافة بعيدة ورائي، وقالت، كما لو كانت تخاطب نفسها: «لم أعد أستطيع القراءة بعد الآن». كانت الكلمات حزينة ورنانة كجرس كنيسة. شعرتُ كأنها تعلن موتها، وراودني إحساس بأنها شعرت بذلك أيضًا عندما قالت كلماتها تلك.

ومع ذلك، كان هناك فرح في ثنايا حزنها، فرحٌ يذكره شخص أمضى حياته في القراءة، واتسع عالمه ليشمل العديد من عوالم الأشخاص الآخرين بفضل الكلمات التي قرأها. ربما من الصحيح أننا في أعماقنا، نحن القرّاء، هناك عدم رضا كامن بهدوء، يجعلنا نتوق إلى أن نكون في مكان آخر، أن نلجأ إلى الكلمات لنتقصّ الحياة التي نريدها والتي لا يمكننا أن نعيشها مباشرة من خلال واقعنا. ربما نحن البدو الرحّل العظماء في هذا العالم، حتى ولو كان ذلك في أذهاننا فقط. أسافر اليوم بالطريقة التي حلمت بها ذات مرة عندما كنت طفلة، والمفارقة هي أنني لا أهتم بهذا الأمر كثيرًا. أنا من النوع الذي يفضّل البقاء في المنزل، محاطة بالعائلة والأصدقاء والألفة والكتب، أمّا ما يعجبني في السفر الآن فهو الوقت الذي أقضيه في الطائرات بين صفحات الكتب، والعزلة، والسعادة. اتّضح أنه عندما فكرتُ حين كنت صغيرة في أن يكون لي جناحان، أردت فقط أن أسمح لروحي بالتحليق. الكتب هي الطائرة، والقطار، والطريق. إنها الوجهة، والرحلة؛ إنها دفء المنزل.

تُعدّ قوائم القراءة احتياطية وقابلة للتغيير، ولكن معظم الناس يحبونها، وكذلك

الحال بالنسبة لي. لقد حظيتُ بتجاربي غير المباشرة الأكثر إرضاءً، كقارئة، من خلال الكتب التي أوصى بها أحدهم، وخاصة كتب أطفالي. ولن أنسى أبدًا قوائم القراءة الصيفية التي صفّفتها لأختي عندما كانت تزورنا خلال إجازاتها الجامعية. في أحد الأيام، جاءت بنسخة ذات غلاف ورقي مهترئ من «كبرياء وتحامل» (Pride and Prejudice) وقالت بحدة وانزعاج: «أخبريني فقط إذا كانت ستتزوج من السيد دارسي، لأنه إذا لم تفعل، فلن أنهي قراءة الكتاب» كم كانت جين أوستن (Jane Austen) ستشعر بالسعادة لو سمعت ذلك. كم كنت أنا سعيدة بكلماتها تلك.

فيما يلي بعض الاقتراحات الاعتباطية والقابلة للتغيير لزملائي القراء:

١٠ كتب كبيرة ورائعة يمكن أن تستغرق منك صيفًا كاملاً في قراءتها (ولكنها ليست كتبًا لمجرّد تمضية الوقت)

ذهب مع الريح لمارغريت ميتشل

Gone with the Wind by Margaret Mitchell

سوق الأضاليل لويليام ماكبيس ثاكيراي

Vanity Fair by William Makepeace Thackeray

شرق عدن لجون شتاينبك

East of Eden by John Steinbeck

ملحمة فورسايت لجون جالسورثي

The Forsyte Saga by John Galsworthy

بودنبروك. قصة انهيار عائلة لتوماس مان

Buddenbrooks by Thomas Mann

هل يمكنك أن تغفر لها؟ لأنتوني ترولوب

Can You Forgive Her? by Anthony Trollope

اختيار صوفي لوليام شترون

Sophie's Choice by William Styron

هنري وكلارا لتوماس مالون

Henry and Clara by Thonias Mallon

العالم السفلي لدون ديليلو

Underworld by Don DeLillo

حمامة وحيدة للاري مكمورتي

Lonesome Dove by Larry McMurtry

١٠ كتب واقعية تساعدنا على فهم العالم

تراجع وسقوط الإمبراطورية الرومانية لإدوارد جيبون

The Decline and Fall of the Roman Empire by Edward Gibbon

الأفضل والأذكى لديفيد هالبرستام

The Best and the Brightest by David Halberstam

قبر لينين لديفيد رينيك

Lenin's Tomb by David Remnick

لينكولن لديفيد هربرت دونالد

Lincoln by David Herbert Donald

ربيعٌ صامت لراشيل كارسون

Silent Spring by Rachel Carson

بدمٍ بارد لترومان كابوت

In Cold Blood by Truman Capote

كيف نموت لشيرون نولاند

How We Die by Sherwin Nuland

الأسير المنسي لجون ديموس

The Unredeemed Captive by John Demos

الجنس الثاني لسيمون دي بوفوار

The Second Sex by Simone de Beauvoir

سمسار السلطة لروبرت أ. كارو

The Power Broker by Robert A. Caro

١٠ كتب من شأنها أن تساعد المراهق على الشعور بإنسانيته

الحارس في حقل الشوفان لِ جيه. دي. سالينجر

The Catcher in the Rye by J. D. Salinger

سلامٌ منفصل لجون نولز

A Separate Peace by John Knowles

ضائعٌ في المكان لمارك سالزمان

Lost in Place by Mark Salzman

ما الذي يضايق جيلبرت جريب؟ لبيتر هيدجز

What's Eating Gilbert Grape? by Peter Hedges

العالم وفقًا لجراب لجون إيرفينج

The World According to Garp by John Irving

إخوة الدم لريتشارد برايس

Bloodbrothers by Richard Price

شجرة تنمو في بروكلين لبيتي سميث

A Tree Grows in Brooklyn by Betty Smith

أن تقتل طائرًا بريئًا لهاربر لي

To Kill a Mockingbird by Harper Lee

القلب صيادٌ وحيد لكارسون مكوليرز

The Heart Is a Lonely Hunter by Carson McCullers

عضوٌ في حفل زفاف لكارسون ماكوليرز

The Member of the Wedding by Carson McCullers

١٠ كتب سأنقذها إن احترقت مكتبتي (إذا أمكنني إنقاذ ١٠ كتب فقط)

كبرياء وتحامل لجين اوستن

Pride and Prejudice by Jane Austen

البيت الكئيب لتشارلز ديكنز

Bleak House by Charles Dickens

آنا كارنينا لليو تولستوي

Anna Karenina by Leo Tolstoy

الصخب والغضب لويليام فولكنر

The Sound and the Fury by William Faulkner

الدفتر الذهبي لدوريس ليسينج

The Golden Notebook by Doris Lessing

ميدلمارتش لجورج إليوت

Middlemarch by George Eliot

أبناء وعشاق لِـ دي. إتش. لورنس

Sons and Lovers by D. H. Lawrence

مجموعة قصائددبليو. بي. ييتس

The Collected Poems of W. B. Yeats

مجموعة مسرحيات وليام شكسبير

The Collected Plays of William Shakespeare

بيت الفرح لإديث وارتون

The House of Mirth by Edith Wharton

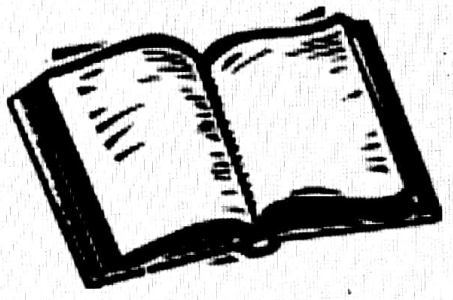

١٠ كتب لفتاة جيدة المزاج (أو يجب أن تكون كذلك)

نساء صغيرات للويزا ماي ألكوت

Little Women by Louisa May Alcott

يوليوس: طفل العالم لكيفن هينكس

Julius: The Baby of the World by Kevin Henkes

بيتسي على الرغم من نفسها لمود هارت لوفليس

Betsy in Spite of Herself by Maud Hart Lovelace

آن من جرين جيبلز، للوسي مود مونتغمري

Anne of Green Gables by Lucy Maud Montgomery

يوميات فتاة شابة لآن فرانك

The Diary of a Young Girl by Anne Frank

العملاق الضخم الودود لرولد دال

The BFG by Roald Dahl

السفر في أنحاء الكون لمادلين لينجل

A Wrinkle in Time by Madeline L'Engle

مادلين للودفيج بيميلمانز

Madeline by Ludwig Bemelmans

كاثرين، التي تُدعى العصفورة لكارين كوشمان

Catherine, Called Birdy by Karen Cushman

الاعترافات الحقيقية لشارلوت دويل لآفي، روث إي. موراي

The True Confessions of Charlotte Doyle by Avi, Ruth E. Murray

١٠ روايات تدور حبكاتها حول الغموض

أرغب في قراءتها في الإجازة الصيفية

وظيفة لا تناسب إمرأة لِ بيه. دي. جيمس

An Unsuitable Job for a Woman by P. D. James

ليلةُ مبهرجة لدوروثي سايرز

Gaudy Night by Dorothy Sayers

أجير مربّي النحل للوري كينغ

The Beekeeper's Apprentice by Laurie P. King

ريبيكا لدافني دو مورييه

Rebecca by Daphne du Maurier

القبض على شورتي لإلمور ليونارد

Get Shorty by Elmore Leonard

الراقصات في الحداد لمارجيري ألينجهام

Dancers in Mourning by Margery Allingham

الطريق عبر الغابة لكولن دكستر

The Way Through the Woods by Colin Dexter

مغامرات شيرلوك هولمز لآرثر كونان دويل

The Adventures of Sherlock Holmes by Arthur Conan Doyle

برات فارار لجوزفين تي

Brat Farrar by Josephine Tey

الجاسوس الذي جاء من البرد لجون لو كاريه

The Spy Who Came in from the Cold by John Le Carré

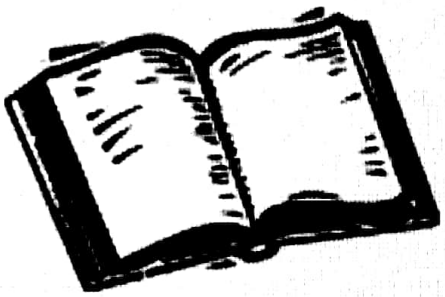

١٠ كتب موصى بها من قبل أمين مكتبة مدرسة ابتدائية

فريد من نوعه

المنظر من يوم السبت لِـ إي. إل. كونينجسبيرج

The View from Saturday by E. L. Konigsburg

فريندل لأندرو كليمنتس

Frindle by Andrew Clements

حبيبي دانيال لبام كونراد

My Daniel by Pam Conrad

صندوق هوديني لبرايان سيلزنيك

The Houdini Box by Brian Selznick

ليلة سعيدة، سيد توم لميشيل ماجوريان

Good Night, Mr. Tom by Michelle Magorian

ممنوع الطيران في المنزل لبيتي بروك

No Flying in the House by Betty Brock

تِنّين أبي لروث ستيلز جانيت

My Father's Dragon by Ruth Stiles Gannett

حبيبي لنعومي شهاب ناي

Habibi by Naomi Shihab Nye

شطائر الطين: ووصفات أخرى: كتاب طبخ للدمى لمارجوري وينسلو

Mudpies: And Other Recipes:

A Cookbook for Dolls by Marjorie Winslow

قصة مايو لمردخاي غيرشتاين

The Story of May by Mordecai Gerstei

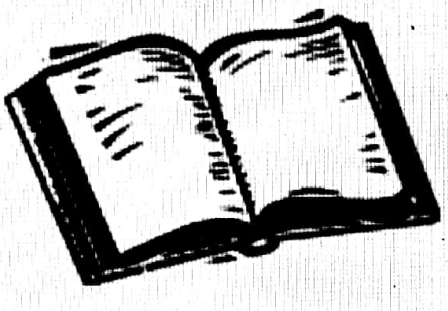

١٠ كتب من الاختيارات الجيدة لنوادي القراءة

الثزوير لأنيتا بروكنر

Fraud by Anita Brookner

بيلي الفاتنة لأليس مكديرموت

Charming Billy by Alice McDermott

كتابُ روث لجين هاملتون

The Book of Ruth by Jane Hamilton

صعود سيلاس لابهام لويليام دين هاولز

The Rise of Silas Lapham by William Dean Howells

يوميات الحجر لكارول شيلدز

The Stone Diaries by Carol Shields

السيدة دالاوي لفرجينيا وولف

Mrs. Dalloway by Virginia Woolf

شفيع الكذابين لآن باتشيت

The Patron Saint of Liars by Ann Patchett

الأخت كاري التيودور دريزر

Sister Carrie by Theodore Dreiser

باريس تراوت لبيت دكستر

Paris Trout by Pete Dexter

عدن القريبة لأنيتا شريف

Eden Close by Anita Shreve

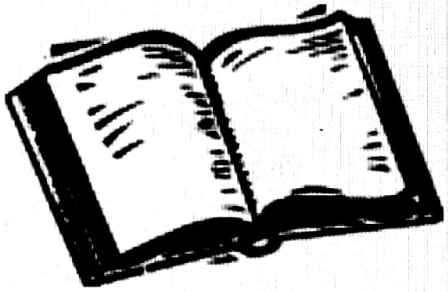

١٠ روايات حديثة جعلتني فخورة بأن أكون كاتبة

السعادة القادمة لراسل بانكس

The Sweet Hereafter by Russell Banks

الضوضاء البيضاء لدون ديليلو

White Noise by Don DeLillo

مارتن دريسلر لستيفن ميلهاوسر

Martin Dressler by Steven Millhauser

الاعترافات لجون غريغوري دان

True Confessions by John Gregory Dunne

وفاة القلب لإليزابيث بوين

The Death of the Heart by Elizabeth Bowen

امرأة الملازم الفرنسي لجون فاولز

The French Lieutenant's Woman by John Fowles

الصقر لجون شيفر

Falconer by John Cheever

العين شديدة الزرقة لتوني موريسون

The Bluest Eye by Toni Morrison

المعلومات لمارتن أميس

The Information by Martin Amis

شكوى بورتنوي لفيليب روث

Portnoy's Complaint by Philip Roth

١٠ كتب من الكتب التي يقول صديقي بين، الذي له عدد لا يُحصى من القراء، أنه استفاد منها كثيرًا

هرتسوغ لشاول بيلو

Herzog by Saul Bellow

الخروج من أجل الهواء لجورج أورويل

Coming Up for Air by George Orwell

بعض الإنجاز لجوين غريفين

Something of an Achievement by Gwyn Griffin

جيم المحظوظ لكينجزلي أميس

Lucky Jim by Kingsley Amis

مجموعة قصائد وليام بتلر ييتس

The Collected Poems of William Butler Yeats

والدن لهنري ديفيد ثورو

Walden by Henry David Thoreau

القمر وستة بنسات لسومرست موغام

The Moon and Sixpence by Somerset Maugham

درّاجو بيربل سيج لزين جراي

Riders of the Purple Sage by Zane Grey

الزنادقة لِ جي.، كي. تشيسترتون

Heretics by G, K. Chesterton

سجلات وابشوت لجون شيفر

The Wapshot Chronicles by John Cheever

تنويه: «لا يمكنني التصديق أنني استقرّيت على تلك القائمة. ماذا عن «الورقة المطوية» لويليام ماكسويل، أو «البيت الذي في باريس» لإليزابيث بوين؟».

١٠ كتب أحب قراءتها ببساطة، وسأظل أقرأها دائمًا

الشارع الرئيسي لسنكلير لويس

Main Street by Sinclair Lewis

حبيبتي أنطونيا لويلا كاثر

My Antonia by Willa Cather

الأسد، والساحرة، وخزانة الملابس لِ سي. إس. لويس

The Lion, the Witch, and the Wardrobe by C. S. Lewis

مرتفعات ويذرنج لإميلي برونتي

Wuthering Heights by Emily Brontë

جين آير لشارلوت برونتي

Jane Eyre by Charlotte Brontë

المجموعة لماري ماكارثي

The Group by Mary McCarthy

طيور السنونو الزرقاء لهوارد نيميروف (شعر)

The Blue Suvallows by Howard Nemerov (Poetry)

كشك تحصيل الضرائب الوهمي لنورتون جاستر

The Phantom Tollbooth by Norton Juster

ترنيمة عيد الميلاد لتشارلز ديكنز

A Christmas Carol by Charles Dickens

السبق الصحفي لإيفلين وو

Scoop by Evelyn Waugh

شكر وتقدير

لقد وجّهتْ شكري لمعظم الكتب المستخدمة كمصادر ضمن متن هذا المقال الطويل. لكني أودّ أن أوجّه شكرًا خاصًا لألبرتو مانغيل (Alberto Manguel) على كتابه الرائع «تاريخ القراءة» *(A History of Reading)*، وكتاب «الفتيات يتكئن في أيّ مكان» *(Girls Lean Back Everywhere)* للكاتب إدوارد دي جراتسيا (Edward de Grazia) الذي قدم إنارة فكرية لا تُقدّر بثمن حول قضايا الرقابة الأدبية. كما أنني ممتنّة أيضًا لكتابين مرجعيين، «الكتابة تغير كل شيء» *(Writing Changes Everything)*، حرّرته ديبورا برودي (Deborah Brodie)، و«كتاب كولومبيا للاقتباسات» *(The Columbia Book of Quotations)*، الذي حرّرَه روبرت أندروز (Robert Andrews).

كما ساعدني العديد من القراء المتفانين في التفكير في القضايا المثارة في هذا الكتاب. أود أن أوجّه شكري إلى إيدن روس ليبسون (Ross Lipson)، ويوجين كينيدي (Eugene Kennedy)، وأونا كاديجان (Una Cadegan)، وإيدن ستيوارت إيسمان (Eden Stewart Eisman) في مدرسة القديس لوقا في مدينة نيويورك، وكارول مايلز (Carol Miles) من رابطة باعة الكتب الأمريكية، وجويس ميسكيس (Joyce Meskis)، من مكتبة تاترد كوفر في دنفر، وأعضاء نادي سانت ديفيد للقراءة، اللواتي دعَونَني لتناول القهوة والمحادثة في إحدى الليالي الشتوية: م. كارين ريدموند (M. Karen Redmond)، وموود ووكر (Maud Walker)، وجويس جاير (Joyce Guyer)، وسيلفيا سيفيرانس (Sylvia Severance)، وباتريشيا جراهام (Patricia Graham)، وجان ماكغويغان (Jeanne McGuigan)، وديان أوهارا (Diane O'Hara)، وجان ويلز (Jean Welz)، وآن كرابو (Ann Crapo)، وليندا إيدي (Linda Edie)، ومارغريت مورفي (Margaret Murphy)، وفيليس هافز (Phyllis Hughes).

Telegram:@mbooks90

وكما هو الحال دائمًا، فقد بذلت كلٌّ من كيت مدينا (Kate Medina) وأماندا أوربان (Amanda Urban) كلّ ما بوسعهما بشكل احترافي. وعلى الصعيد

الشخصي، هناك جانيت ماسلين (Janet Maslin)، وبن شيفر (Ben Cheever)، وكوين (Quin)، وكريستوفر (Christopher)، وماريا (Maria)، وجيري كروفاتين (Gerry Krovatin).

كما أوجّه خالص شكري وامتناني بشكل خاص للمعلمين وأمناء المكتبات. لولاكم لما كنتُ أنا.

نبذة عن المؤلفة

آنّا كويندلين (ANNA QUINDLEN) هي روائية وصحافية ظهرت أعمالها في قوائم الكتب الأكثر مبيعًا في مجالات الأدب والكتب الواقعية وكتب المساعدة الذاتية. وهي مؤلّفة لسبع روايات: دروس مع وسائل الإيضاح *(Object Lessons)*، وشيء حقيقي *(One True Thing)*، وأسود وأزرق *(Black and Blue)*، ونِعَمٌ مباركة *(Blessings)*، وارتقٍ وتألق *(Rise and Shine)*، وفي وجه المخاوف *(Every Last One)*، وحياة هادئة مع فتات الخبز *(Still Life with Bread Crumbs)*. كانت مذكراتها «كثير من الشموع، كثير من الكاتو» *(Lots of Candles, Plenty of Cake)*، التي نُشرت عام 2012، أكثر الكتب مبيعًا في «نيويورك تايمز». كما بيع من كتابها «دليلٌ قصير لحياة سعيدة» *(A Short Guide to a Happy Life)* أكثر من مليون نسخة. وبينما كانت كاتبة عمود في صحيفة نيويورك تايمز، فازت بجائزة بوليتزر ونشرت مجموعتين: «العيش بصوتٍ عالٍ» و«التفكير بصوت عالٍ». جُمعت مقالاتها التي كتبتها في نيوزويك في كتاب «بصوت عالٍ وواضح» *(Loud and Clear)*.